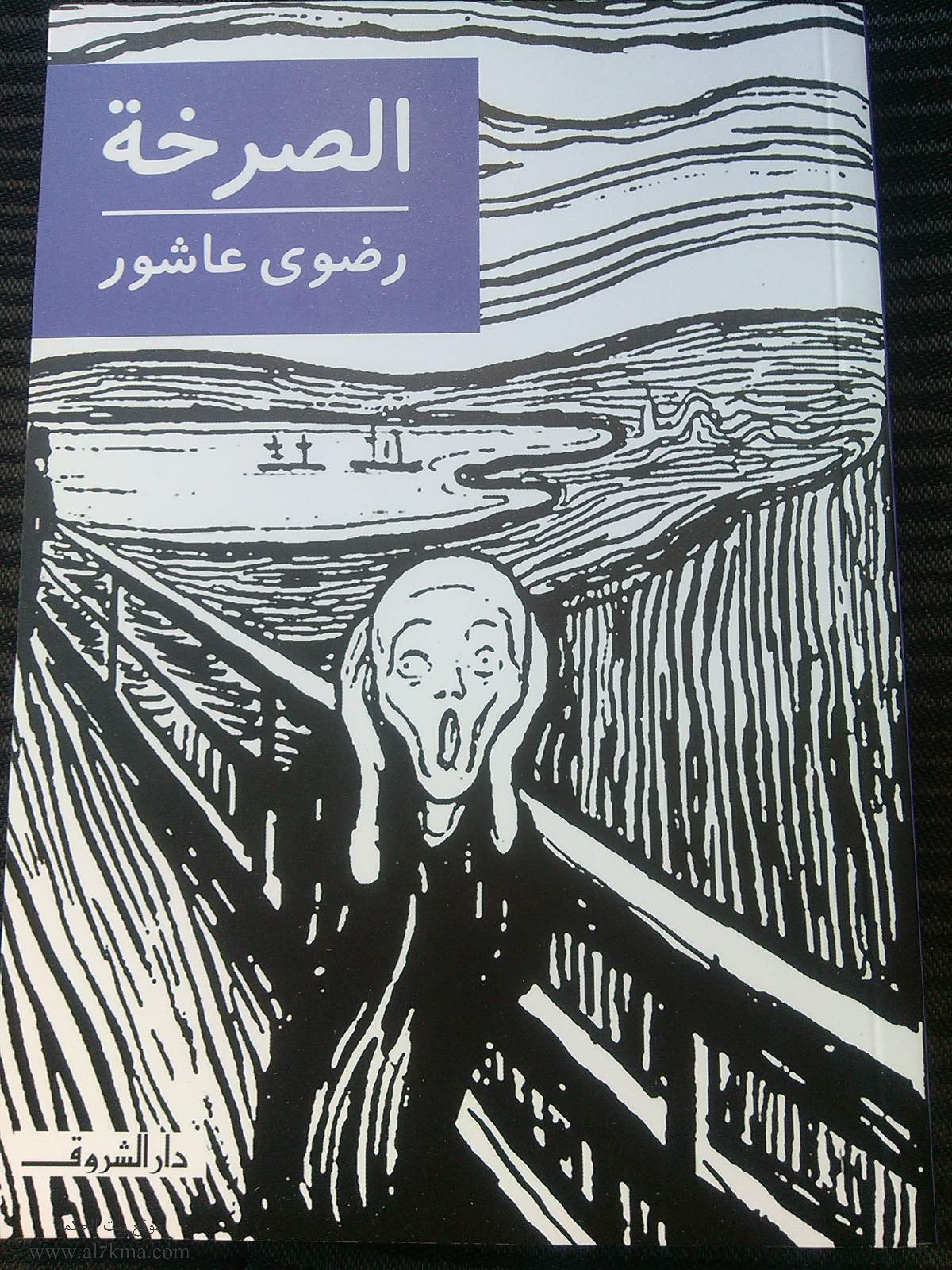

الصرخة
رضوى عاشور
دار الشروق
www.al7kma.com


بيت الحكمة

الصرخـة
مقاطع من سيرة ذاتية

رضوى عاشور

لوحة الغلاف: «الصرخة» لإدفارت مونش

الطبعـة الأولى ٢٠١٥

تصنيف الكتاب: أدب / سيرة ذاتيـة



٨ شـارع سيبويـه المصـري
مدينة نصر القاهرة مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com

رقم الإيداع ٤٥٤٥/٢٠١٥
ISBN 978-977-09-3342-8

رضوى عاشور

# الصرخة

## مقاطع من سيرة ذاتية

( الجزء الثانى من « أثقل من رضوى» )

دار الشروق

## مقدمة

هذا هو الجزء الثاني من كتاب «أثقل من رضوى» الصادر عن دار الشروق في القاهرة عام ٢٠١٣ والذي روت فيه الكاتبة تجربتها مع المرحلة الأولى من المرض والعلاج وما كان يجري في مصر من أحداث بين عامي ٢٠١٠ و٢٠١٣. في هذا النص تكمل رضوى عاشور رواية تجربتها مع عودة المرض ومع ما جرى في مصر، وقد توقّفتْ عن الكتابة في سبتمبر ٢٠١٤ ووافتها المنية في ١ ديسمبر من العام نفسه. وقد قمنا بنشر النص كوثيقة، كما هو، بدون تدخل من جانبنا، إلا من بعض الحواشي التي تشرح إشارات في النص تحيل إلى كتاب «أثقل من رضوى»، كما قد يجد القارئ والقارئة، رؤوس أقلام أو عناوين فصول، بعدها صفحة بيضاء، كانت الكاتبة تتأمل تتبعها أو الكتابة عنها ولم تفعل. كانت الكاتبة اختارت عنوان هذا الكتاب، وعينت الفصل الختامي منه كما يرى القارئ والقارئة، وإن كان تأمّلها لإضافة فصولٍ داخليةٍ فيه ظاهرا. وعلى غير العادة، لم تسمح الكاتبة لأسرتها وأصدقائها بالاطلاع على النص أثناء كتابته.

تعرضت رضوى عاشور لعدة عمليات جراحية لإزالة ورم في الرأس في ديسمبر ٢٠١٠ ثم في فبراير ٢٠١١ ثم في فبراير ٢٠١٣، كلها في واشنطن، ثم في أغسطس ٢٠١٣ في آرهوس بالدنمارك، ثم إلى سبع جلسات إشعاعية في القاهرة بين مايو وأكتوبر ٢٠١٤، أثناء كتابتها لهذا النص.



الفصل الأول

## مدخل

كتب الرجلُ في يومياتِهِ:

«كنتُ أسيرُ في الطريقِ برفقةِ صديقين عندما غربت الشمس. فجأة، غدت السماءُ حمراء لها لونُ الدم. توقفتُ ومِلتُ على السور وقد غلبني إرهاقٌ لا يوصف. كانت ألسنةُ اللهبِ والدم تمتدُّ على الزرقةِ المُسْوَدَّة لمياهِ الخليج. واصل صاحباي السير وبقيتُ واقفًا أرتجف من شِدَّة الخوف.. ثم سمعتُ صرخةَ الطبيعة هائلةً وبلا نهاية!».

لا أعرف في أيّ سنةٍ تحديدًا كتب الرجلُ هذه الفقرة من يومياتِه، ولكنني أعرف أنها تُشيرُ إلى اللحظةِ التي ألهمتْه عناصرَ لوحتِهِ الشهيرة التي رسم نسختَها الأولى عام ١٨٩٣.

لم ألتقِ الرجلَ إلا عبر لوحاتِه، لأنه عاش ومات قبل أن أولد. ورغم أن النيل، والسماء الممتدّة فوق مائه والغروب كانت مشاهدَ أليفةً صاحبتني في طفولتي وصباي، (كنّا نسكنُ في بيتٍ تُطِلُّ شرفته

ونوافذُه على النهر وتواجه شاطئَه الغربيّ)، فإنني لم أر أبدًا مشهدًا مماثلًا لغروبٍ يستحضر لي لونَ الدم.. كان الجوُّ في الغالب صحوًا وماءُ النيل رائقًا وزرقةُ السماء صافية، ولقرصِ الشمسِ الغاربة ألقةُ حبّةِ برتقال.

* * *

قبل حوالي عشر سنوات، كنت مدعوّة إلى جولة في ثلاثِ مدنٍ سويسرية تُعقد في كلٍ منها ندوةٌ أشتركُ فيها مع الكاتبِ السويسريّ هوجو لوتْشر والمترجمِ أستاذ الأدب العربي، هِلْموت فَاندريتْش.

في اليوم المُخَصَّص للندوة، ركبتُ القطار من زيوريخ، فحملني بعد ساعتين أو ثلاث إلى بازِل. قبل أن أغادر المحطة، استعلمتُ عن كيفية الوصول إلى مؤسسة بايْلِر وفيها المتحف الذي أقصده. قيل لي اركبي الترام رقم ٢. لم أركبه. اتضح لي أن عليّ أن أغيّره في محطة ما في منتصف الطريق، وأنتقل إلى ترام آخر. لا أعرف بازِل ولم أزرها من قبل. ألقيتُ نظرةً خاطفة إلى ساعتي وقررتُ أن استقلَّ سيارةَ أُجرة. كان المتحفُ على أطرافِ المدينة أو خارجها، وهو ما قدّرته من طول المسافة التي قطعناها والحقول التي مررنا بها. لم أندم على المبلغ الباهظ الذي دفعته لسيارة الأجرة لأنني استرجعتُ واقعةَ متحفِ فان جوخ في أمستردام قبل عدة سنوات، يوم نُصحت بركوب الترام رقم كذا من أمام محطة القطارات. كنت قادمة من لاهاي، وكان الترام بطيئًا يكاد لا يتحركُ حتى يتوقف في محطةٍ جديدة، ينزلُ منه ركابٌ ويصعدُ آخرون، تطول وقفتُه ثم يعود يتحرك ثم يتوقف، وهكذا.. أخيرًا عندما وصلتُ المتحف، وجدت



صفًا طويلًا أمام شبّاك التذاكر، انتظرت. استغرقني الأمر حوالي ساعة أو أكثر قبل أن أشتري تذكرة وأدخل المتحف. ولمّا كان لديّ موعد، وقفت دقيقتين لا أدري ماذا أفعل في ربع ساعة. حسمتُ أمري. ذهبت مباشرة إلى لوحةِ زهرِ اللوز، وقفتُ أمامها ربع الساعة المُتاحة، ثم ركضتُ إلى باب الخروج.

نعم يا سيدتي القارئة. وصلتُ إلى أمستردام. دخلت متحف فان جوخ. غادرتُه ولم أشاهد سوى لوحةٍ واحدة خلّفتْها ورائي وبي سخطٌ لا أدري كيف أوزّعه، وأيُّهم أحقُّ به: الترام، أم الصفّ الطويل أمام شُبّاك التذاكر أم صديقي الناشر الهولندي الذي التزم بالموعد فوجدته ينتظر في سيارته في المكان والساعة المُتَّفَق عليهما؟

ولأن «المؤمن لا يُلدغ من جُحرٍ مرّتين» كما يقول المثلُ وتنصحُ التجربة، ركبتُ سيارة أجرة بدلًا من الترام أوصلتني إلى مؤسسة بايْلِر. وقفتُ في الصفّ واشتريتُ تذكرة. استوقفني معمارُ المتحف: مبنى جميل حديث التصميم، من طابقٍ واحد، تحيط به حديقةٌ ممتدة كثيفةُ الخضرة، وأخرى صغيرة إلى يسار الداخل على ما أذكر، تنمو نباتاتُها في حيّزٍ زجاجيّ يربط بين الحديقتين.

بدأت بالعرض الخاص بلوحات إدفارت مونْش، وهو الفنانُ النرويجيّ الذي اقتبستُ من يوميّاتِه في الفقرة الأولى من هذا الفصل. شاهدتُ لوحاتٍ له لم أكن رأيتُها من قبل. تعرّفت على أجوائه وأسلوبه، ولكن اللوحةَ المقصودة لم تكن ضمن العرض. لم أخرج هذه المرة بخفّي حُنَيْنِ المَثَل، لأن المتحف كان يضمُّ لوحاتٍ لبيكاسو ومونيه وبضعة تماثيل لجياكوميتي وغيرهم. قبل أن أغادر اتجهتُ

إلى الشجرتين اللتين لمحتهما وأنا أقصد صفَّ شراءِ التذاكر، وهما شجرتا ماجنوليا وارفتان مزهرتان. تذكّرتُ أننا في شهر إبريل. كدت أتمتم عبارة: أمرٌ طبيعيّ، ولكنني راجعتُ نفسي: ليس كل الشجر بهذا البهاء في الربيع. بدت لي وفرةُ الأزهارِ على الشجرتين وكِبَرُ حجمِهما وتدرّج اللونِ فيهما من الخمريّ الداكنِ إلى الأبيضِ مرورًا بالورديّ الصريحِ أو الخفيف، مدهشة.

ودّعت الماجنوليا ومبنى المؤسسة وركبت الترام الذي يعود بي إلى وسط البلد، أعني قلب بازِل. فلما وصلت، بحثتُ عن «دار الآداب» التي تُعقد فيها الندوة. وجدت الشارع ومقر الدار تُعيّنُهُ لائحةٌ نحاسية على المدخل. قلت: الآن أعرف المكان، بإمكاني الجلوس في مقهى قريب، أغادرُه قبل نصف ساعة من موعد اللقاء.

ربما تقول لنفسك يا صاحبي القارئ إن رضوى تستطرد بلا داعٍ. ولعلك تتساءل عن أهمية هذا المتحف أو ذاك في مدخل كتاب تشير فقرته الأولى إلى غروبٍ دمويّ يُفزع رائيه. صبرًا يا عزيزي، قد تكتشف منطقًا في هذه الثرثرة، أو أكتشفُ أنك على حق، وأنني أجدُ صعوبةً في استعادة قدرتي على الكتابة السَلِسَة، بعد أزمةٍ صحيّةٍ جديدة.

قبل شهر من كتابة هذه السطور، نزلنا فندقًا في مدينة أُرهوس بالدانمارك (يتجاوز أهل البلد عن حرف الراء في نطق اسمها، فتصبح أوهوس). وكان متحف المدينة على بعد خطوات من هذا الفندق.. لم نزُر المتحف إلا مرةً واحدة، لأن المتاحف تفترض المشي بين طوابقها وأجنحتها، والوقوف أمام اللوحات وغيرها من القطع الفنية



المعروضة فيها. لم يكن هذا النشاط ميسورًا وأنا أستعين بعصا طبيّة في المشي بسبب جرحٍ غائرٍ في قصبةِ ساقي اليمنى.

انتبهت لوجود المتحف قبل أن أزوره أو أعلم أنه متحف. كانت البانوراما الزجاجية في طابقه الأخير ملفتة. بانوراما دائرية تتعاقبُ على زجاجها ألوانُ الطيف: الأزرقُ والأخضرُ والأصفر والبرتقاليُّ والأحمر. إن رفعت عينيكَ إليها وأنت في الشارع ترَ أطيافًا تتحرك: خيالَ رجلٍ أو امرأة أو شابة تدفع بعربة وليدِها. وإن صعدت إليها لتلحق بالروّاد الذين لمحتهم من الشارع، ترَ المدينةَ تبعًا لموقعِكَ من الزجاج. إن تطلّعت عبر الأزرق بدت لك المدينةُ تغادر الغروبَ باتجاه الليل. وإن نظرتَ عبر الأخضر رأيتَها خضراءَ، كأن عدوى الربيع امتدت من الشجر إلى العمائر. أو تراها عبر الأصفرِ أو الأحمرِ، برتقاليةً كأن شمسَ الظهيرةِ أشعلتها.

أتمكّن من الصعود إلى البانوراما لأن مصعدًا يحمل الزوار إليها. أتحرّك بصحبة مُريد وتميم في ممرِّها الدائريّ. أمشي ببطء مستعينةً بالعصا التي أتكئ عليها. ثم نغادر البانوراما لأن المشي أجهدني. يذهب تميم ليشاهد مقتنياتِ المتحف وعروضَهُ الخاصة، ويرافقني مُريد إلى المصعد الذي يحملنا إلى الطابق الأرضي حيث محل التذكارات والمقهى. ندخل محلَّ التذكارات. أتطلّعُ إلى بعض الكتب ومستنسخاتِ اللوحات. لا أشتري إلا بطاقةً عليها النسخة المفضّلة لي من «الصرخة».

يذهب مُريد ليأتي لنا بكوبَيْ قهوة وأجلس في المقهى أتأمل البطاقة التي اشتريتُها.

قلت هل يقبل الناشرُ فكرةَ استنساخِ هذه الصورة على غلافِ الجزءِ الثاني من «أثقلُ من رضوى»؟ هل تُعجبه أم يرى فيها رسالةً قاتمة؟ هل يفضّل النسخةَ المُلوَّنة على نسخة الليتوجراف المرسومةِ بالأسود؟ والأهمّ، هل أتمكّنُ من كتابةِ جزءٍ ثانٍ من «أثقلُ من رضوى»؟ قلت ربما أتراجع عن العنوان وشكل الغلاف حين أتمُّ الكتاب.

نعم كنتُ منشغلةً بالكتابة، ولكنني لا أعرف إن كنتُ قادرةً عليها. ها أنا ذي المُغْرَمة بالمتاحف، أسافر من مكان إلى مكان لمشاهدة لوحة أُحِبُّها، غيرُ قادرة على زيارةِ متحفٍ على بُعد خمس دقائق من الفندق الذي نقيم فيه! نغادر الفندق في طريقنا إلى المستشفى يوميًا تقريبًا، فلا يفوتني ملاحظةُ صفِّ الدرّاجات الذي يمكن استئجار درّاجة منها بقروشٍ قليلة. أقول ركوبُ الدرّاجاتِ فعلٌ ماض، من ذكريات الطفولة والصبا. يمكن لامرأة في السابعة والستين أن تركب درّاجةً وتطير بها إن أرادت، لكن الأمرَ مشروطٌ بصحةٍ جيّدة وساقين سليمتين. لا أمتلك الشروط.

في الدانمارك، يذهب الصغار والكبار إلى مدارسهم ومعاهدهم وأشغالهم بالدرّاجات. يُذكّرني المشهد بطفولتي وبآخر مرة أُتيح لي فيها ركوب درّاجة. تُلح عليّ رغبة في كتابة مقطع أو فصل في رثاء علاقتي بالدرّاجة. دعني أُوَضِّح لك يا عزيزي القارئ: إنني لم أذهب إلى الدانمارك للسياحة أو لإلقاء محاضرة أو حضور مؤتمر، بل لإجراء جراحة جديدة، صعبة ومعقدة، أفلتُّ منها بقدرة قادر، وعناية فريق من الجرّاحين والأطباء والممرضين. لا أريد أن أبدأ الكتاب بهذا الموضوع فأغدو كمن يستقبل ضيوفه قبل أن



يتخطّوا العتبة بأخبار سيّئة. أي تناقض هذا يا رضوى؟ لقد استقبلتِهم بالصرخة!! فليكن، أريد أن أتحدّث عن أمرين: أولهما اللوحة التي حان وقت تفصيل الكلام عنها، وثانيهما شكوكي في قدرتي على الكتابة والتي سيُحَدِّدُ القارئ وحده إن كان لها ما يبررها أم أنها هواجسُ بلا أساس.

لو تمكّنت دار الشروق من استخدام اللوحة على الغلاف فسيسهُل عليكما يا صاحبيّ أن تتأملا تفاصيلها فتُغنيكما عن وصفي الأعرج لها. وإن لم تتمكن الدار لسبب أو آخر، أو عدلتُ عن العنوان واستخدام اللوحة على صفحة الغلاف، فيمكنكما أن تبحثا عنها على الشبكة الإلكترونية، وتطيلا النظر في نسخها الأربع، أو الثلاث المُلوَّنة ولوحة الليتوجراف المرسومة بالأسود والتي أُفضِّلها. تحمل جميعها اسم «الصرخة». يتصدّرها شخصٌ يصعب تحديدُ إن كان رجلًا أو امرأة، يقف على جسرٍ مُشْرِفٍ على خلجان المدينة. يسكن الهلعُ وجهَه، فيغدو مسحوبًا لأسفل من وطأة ما يرى أو يسمع. الفمُ مفتوحٌ ويستطيل، لأنه يصرخ أو يسمع الصرخة. العينان مُدَوَّرتان مفتوحتان على اتساعهما. اليدان تحيطان بجانبي الوجه، تحجبان الأذنين لحمايتهما من الصوت المفزع الذي لا نعرف إن كان مصدرَهُ المشهدُ أو المُشاهِد، يضغط عليه من خارجه أو من داخله. الجسدُ بلا تفاصيل: مجرد كتلةٍ أو بقعةٍ سوداء أو مُلوَّنة مائلةٍ لليمين قليلًا، تحيل ربما إلى شكل علامةِ استفهامٍ غليظةٍ وغامضة. في أقصى يسار اللوحة الصديقان اللذان أكملا سيرَهما، نراهما مستقيمَين وفي كامل ملابسهما، يرتدي كلٌّ منهما قبعةً عالية. يمشيان مبتعدَين عن صاحب

الصرخة الذي ينظر إلى الجهة الأخرى، جهة المدينة. السماء لا تُظهر شمسًا على شروق أو غروب، بل خطوطًا سوداءَ متماوجة متداخلة أو خطوطًا خفيفةً حمراء في اللوحة المرسومة بالقلم، وحمراء لهبيّة كثيفة في اللوحة المُلَوَّنة بالفرشاة، تمتد فوق ماءِ الخليج، وسخونة أزرقِهِ القاتم الأشبه بدوّامات مُضْطَرِمة من عالمٍ سفليّ. في الخليج مركبان وعلى الشاطئ مبنى صغيرٌ باهتٌ كالطَّيف يصعب تحديدُ كُنْهِه، يمكن بالتدقيق معرفة أنه كاتدرائية أو كنيسة.

ولأن «الصرخة» لوحةٌ شهيرة فقد حظيت بكتاباتٍ كثيرة تصفها وتقرؤها وتصنّف موقعها من تاريخ الفن الأوروبي الحديث ومُقَدّماتِ الحركة التعبيرية في نهاية القرن التاسع عشر، وتبحث في تفاصيلها وتربط أحيانًا بين التجربةِ التي تنقلُها وحياةِ مبدعِها.. بل وتسعى إلى تحديد موقعِهِ الجغرافيّ في اللحظة التي أشار إليها في يوميّاته: أين كان يقف، وإلى أي اتجاه كان ينظر حين داهمه الخوف الشديد.. بل وذهب البعض إلى أن هذا المكان كان قريبًا من مسلخِ المدينة، وقد يكون الصوتُ جئيرَ الحيوانات ساعة الذبح، وأنه -أعني الموقع- كان بالقرب من مصحّةٍ للأمراض العقليّة تُعالَج فيه أخت مونش. وربط هذا البعض بين الصرخة وأصوات المرضى المثقلين بمتاعبهم النفسيّة والعصبيّة.

وبصرف النظر عن دقّة هذا الكلام أو نفعه، تبقى اللوحةُ على طريقة الفن، تتجاوز هذا الظرف الشخصيّ لتُجَسِّد تجربةً دالة لشخصٍ مُفرد ينتبهُ فجأةً إلى رهبةِ الوجودِ ووحشتِه وتوحّشِه فيرتجف هلعًا وهو يلتقط صرخَتَه أو يردِّدها.



الفصل الثاني

## تعديل على عبارة سعد الله ونّوس

في جلستنا الختاميّة مع فريقِ الأطباء، بعد ما يقرب من شهر من مغادرتي المستشفى، قال الدكتور جورم، جرّاح المخ والأعصاب، إنني لن أتمكن من العودة إلى عملي قبل ستة أشهر. قال: ستستعيدين قدراتك تدريجيًّا، ستجدين بعض الصعوبة في القراءة والكتابة والتعامل مع الأرقام، لبعض الوقت، ثم تتغلّبين عليها. أجرينا لك جراحة كبيرة ومعقّدة. كنا نسعى إلى الشفاء، وهو ما حققناه بنسبة كبيرة. كان الوضع بالغ الخطورة فيه تهديد للحياة. وما زلنا نأمل أن يتحقق الشفاء الكامل.

كان اجتماعُنا المحدّدُ موعدُه سلفًا، في غرفة صغيرة نسبيًّا من غرف المستشفى. سيخبرنا الأطباء عن نتائج تحليل الباثولوجي للهوامش التي استُئصلت، والاحتمالات المتوقّعة. ويستمعون إلى أسئلتنا ويجيبون عنها.

جلسنا كما أشاروا علينا، أنا ومُرِيد وتميم على ثلاثة كراسي متجاورة. عن يميننا جلس الجرّاحون الثلاثة، الدكتور جورم رئيس الفريق الذي استأصل الورم المُرتجع والهوامش وجزءًا من عظم الرأس وغشاء المخ، (الأم الجافية سالفة الذِكر (١))، وجرّاحتا التجميل، الدكتورة جيتا والدكتورة بيرجيتا اللتان قامتا بإغلاق الرأس بعملية مُركّبة تشمل نقل عضلة من الظهر إلى مؤخرة الرأس وتحويل أوعية دموية من العنق إليها، وتعويض الأم الجافية بشبكة عضوية من جلد حيوان، ثم رُقعة أخرى أرقّ مستأصلة من أعلى الفخذ الأيسر.

أمامنا، خلف مكتب صغير عليه كمبيوتر مفتوح، جلس الدكتور أكمل صفوت، صديقنا وطبيب الأورام المتخصّص في الساركوما (أورام الأنسجة ومنها الشوانوما). سيشارك أكمل في الرد على أسئلتنا، وفي الحديث المفصّل بوصفه الطبيب المُعالج، حول ما أُنجز ومختلف الاحتمالات. كانت ردودُه مشفوعةً بالنسبِ والأرقامِ المقتبسة من الأدبيات المتوافرة في الموضوع.

قفزت إلى ذلك اللقاء الأخير قبل الحديث عن تجربتي في المستشفى في تسلسلِها الزمنيّ، لأنني أردتُ أن أنقل لكم كلام الدكتور جورم عن الصعوبات المتوقّعة في القراءة والكتابة وهو ما انتبهت له قبل اللقاء، حين لم أتمكّن من قراءة مقال بسيط على

(١) في كتاب «أثقل من رضوى»، القاهرة، دار الشروق، ٢٠١٣، حيث ذكر الجراحات السابقة.



لوحي الإلكتروني، وتعثّرتُ في كتابة رسالة إلكترونية لا تتجاوز ثلاثة أسطر. وهنا بيت القصيد. أعني أن الجراحة وما استتبعها فتحت بابَ الهواجس. لم يكن الجسدُ وحده هشًّا ومجرّحًا وإن استقتل في المقاومة (مقاومة تلقائيّة تفرضها الغريزة وعناد موروث)، بل غدت الهشاشةُ سؤالًا عن قدرتي على الفعل، وخوفًا أتجنّب الحديث عنه أو التمعّن فيه.

بعد عودتي إلى القاهرة، وكان مرّ شهران على الجراحة، وجدتُني وأنا في الفراش، يستعصي عليّ النوم كما هي العادة، أُعِدُّ محاضرةً شاملة لطلاب الفرقة الرابعة، أُجمِلُ فيها نشأةَ أدب الأفارقة الأمريكيين وتطوّرَه، أستدعي فيها نماذجَ واقتباسات دالة أظنّها تلهم الطلاب. هذه مادة توقّفت عن تدريسها منذ سبع سنوات أو ست، وكانت أستاذة المادة الحاليّة، طلبت مني أن ألتقي الطلاب لأحدّثهم في الموضوع. قلت سألبّي طلبها في الفصل الدراسي القادم. رحت أُعِدُّ المحاضرة في ذهني. أستجمع عناصرها. وأسترجع شواهدَ وأمثلة أربط بينها أو أستعيد ما حفظته منها، دون صوت. رأسي على الوسادة. جسمي ساكنٌ على السرير. عقلي دوّارٌ يعدُّ الحديثَ كأنني سألقيه صباح اليوم التالي. لماذا؟ الأرجح أنني كنت أختبر نفسي. أحاول الإجابة عن السؤال: هل أصلح؟ هل أستطيع؟

يقول عني القرّاء إنني كاتبة جيّدة، وأحيانًا يستقبلون رواية جديدة لي بترحيب مؤثّر. ويبدو من المنطقيّ في ضوء هذا الكلام أن أزداد

ثقةً بنفسي، وتسقط الهواجسُ التي عادة ما تستبدُّ بي كلما بدأتُ نصًا جديدًا، ولكنها لا تسقط غالبًا إلا حين يأتيني مقطعٌ ما أو صفحةٌ أو ربما صفحات تنكتب بسلاسة وسرعة، تفاجئني قوّتُها حين أعيد قراءتها. أتساءل كيف كتبتُها؟ وهل هناك حقيقةً عفريتٌ للكتابة؟ وما القانون الذي يحكُمُه؟ وتبقى هذه اللحظات «العفاريتي» نسبة للعفاريت التي تأتي بها، لحظاتٍ استثنائيةً لا تنطبق على القاعدة المثقلة بالسؤال عن قيمة ما أكتب.. أهربُ من السؤال. أُغلقُ الملفّ. أترك الكمبيوتر ليوم أو بعض يوم أو لأيام، ولا أعود له إلا انسياقًا على طريقة المدمنين أو العشّاق.

وربما تكون المخاوفُ أمرًا طبيعيًا لأن الفنانين قلقون بالفطرة، ولأن النساء بحكم الواقع التاريخيّ الذي تكوَّنَّ في سياقِه، يفتقدن غالبًا الثقة بالنفس، إن لم ينتبهن ويتعهدن هذه الثقة الهشّة بالعناية، لأنهن يحتجن لاكتسابها لا افتعالها، فتأتي ببطءٍ وتلقائيًا كالخبرةِ والنضجِ وقطعِ المسافةِ من الطفولةِ إلى الرشاد. آمل يا عزيزي القارئ ألا تملَّ من هذا الكلام وتعترض بأنك حين اشتريت الكتاب لم ينبّهك العنوان إلى أن المؤلفة ستُلَقِّنك محاضرة عن المرأة ودرجات ثقتها بنفسها.. أكاد أسمعك تُبَرْطِم: لم نتفق على هذا!

اصبر يا سيّدي، واعلم أنني أريد أن أحدِّثك عن مسعاي للكتابة الآن بعد فترة انقطاع لم تتجاوز بضعة أشهر، وإن كانت حافلة بالمُجريات والأحداث الجَلَل. أحاول الكتابة وقد غدا السؤال



«هل أستطيع؟» يلازمني.. تميم، لو سمحت اقرأ هذا المدخل، قل لي رأيك فيه. يقرؤه. يُثني عليه. لا أصدِّقُه. مُرِيد، هل يمكن أن تقرأ ما كتبت؟ يعجبه ما كتبت. لا أصدِّقُه.

اسمح لي يا سعد الله، سأعدِّل عبارتك. تقول: أسوأ ما في المرض أنه يكسرُ الكبرياء. لا يا صديقي، أسوأ ما في المرض أنه يُرْبِكُ ثقتك بنفسك فيتسرّب إليك الخوفُ من أنك لا تصلح، ولن تستطيع.

الفصل الثالث

## زحمة سير. اختناق مروري

أذكّرك يا عزيزتي القارئة أنني أنتهيتُ من «أثقلُ من رضوى» في التاسع من مايو ٢٠١٣. ولو عُدتِ إلى الكتاب لوجدتِ هذا التاريخ مُدَوَّنًا في السطر الثاني للفقرة الأخيرة. كنت انقطعت عن الكتابة في نهاية شهر يناير لأنني اضطررت للسفر لإجراء جراحة في مستشفى جورجتاون (أسميتها «كلاكيت خامس مرة»)، وهو ما نقلته لكِ سابقًا. أرجع إلى «أثقل من رضوى» فأنتبه إلى أن الفصول التي كتبتُها بعد عودتي في آخر مارس، سبعة فصول أو ربما ستة، إذ لا أذكرُ إن كنت كتبتُ الفصلَ التاسعَ والعشرين: «عن الشعر والشعراء»، قبل سفري أو بعد عودتي. كنت أعمل بسرعةٍ وهمّة مصدرُها على ما أُرَجِّح، أن الكتابة كانت اكتملت داخلي ولم يبق سوى تدوينها، أو هاجسٌ غير موعيٍّ به أنني لا أملك تبديد الوقت. أستغرب الأمر لأنني وأنا أكتبُ يوميًا وبانتظام، كنت أواظب على محاضرات الدراسات العليا، ألتقي أسبوعيًا بالطلاب فنقضي ساعتين

كل مرة في مناقشة النصوص المُقَرَّرة لدرس الأدب المقارن. وكان ساعدي الأيسر ملفوفًا بالأضمدة، تؤلمني أصابع يدي اليسرى، ويصعب عليّ ثنيها أو إغلاق قبضتي.

سلّمتُ الكتاب إلى دار الشروق في أواخر مايو. لم أنتظر كما جرت العادة، شهرين أو ثلاثة لإعادة النظر فيما كتبت. بعد أقل من شهر من تسليم الكتاب، فاجأتني السيدة أميرة أبو المجد مسئولة النشر في الدار، بتسليمي نسخةً من الكتاب بعد مراجعته وطبع مسوَّدته. لم يكن كالمعتاد أوراقًا يجمعها ملف بل كان مُجَلَّدًا بغلاف أبيض، مكتوب عليه بخط اليد:

بروفة أولى. ٢٠/ ٦/ ٢٠١٣. أثقل من رضوى (عنوان مؤقت)

د. رضوى عاشور

ولما كان لقاؤنا في جوٍّ احتفاليّ بمكتبة الشروق في الزمالك، لم أقل لأميرة إنني قد أتأخر قليلًا في مراجعة البروفة، لأنني ثرثارة وقد تُفلت مني الإشارة إلى أسباب هذا التأخر.

قبلها بيومين كنت ذهبت مع تميم إلى المعمل حيث أجريت لي فحوصات. وحين انتهيتُ منها قالت لي السيدة المسئولة عن تسليم النتائج إن بإمكاني استلامها يوم السبت. قلت أُفَضّل استلامَها يوم الأحد. كنت متوجِّسةً من النتائج، لا أريد إفساد فرحتنا بنتائج سلبية محتملة. في يوم السبت الثاني والعشرين من يونيو كان لدى مُريد حفلُ توقيع احتفاءً بصدور الطبعة المصرية من أعماله الشعرية



الكاملة. كان احتفالًا أليفًا ومؤثرًا، ازدحمت فيه المكتبة بالحضور والمشاعر الطيّبة.

في اليوم التالي استلمنا النتائج. فكتبت رسالة على البريد الإلكتروني إلى الدكتور نيوكِرْك[٢]، هذه ترجمة لنصها:

«العزيز الدكتور نيوكرك،

آمل أن تكون بخير. قمت الأسبوع الماضي بإجراء المسح الذرّي والأشعّة المقطعيّة والرنين المغناطيسي. وللأسف أظهرت الصور علاماتٍ على ارتجاع الورم. وهناك أيضا نتوءٌ متورِّم أعلى الرأس على بعد خمسة سنتيمترات من الأذن اليمنى، بالقرب من الرُّقعة القديمة. أُرفق لك التقارير. أما القرص المُدْمَج فقد أرسلته لك بالأمس بالبريد السريع، والأرجح أنه يصلك قبل نهاية الأسبوع.

سأقدّر نصيحتك: ما الذي أفعله الآن؟ جراحة جديدة؟ هل علينا إجراؤها بسرعة؟ هل نحتاج لأخذ عينة؟ (يمكننا أخذ العيّنة في القاهرة) بل إن الطبيب هنا يرى أن إجراء الجراحة في القاهرة أمرٌ ميسور، ولكن ما يقلقه هو الجزء الخاص بإغلاق الجرح وتركيب الرُّقعة. قال لست متأكدًا من إمكانية التعامل مع هذا الأمر. وقال إننا

(٢) الدكتور كينيث نيوكرك، رئيس فريق الأطباء المشرف على استئصال الورم في المرة الأولى بمستشفى جامعة جورجتاون بواشنطن عام ٢٠١١ ثم مرة أخرى بعد ارتجاعه عام ٢٠١٣.

قد نحتاج هذه المرة كما حدث في جراحة فبراير ٢٠١١ إلى استئصال جزء من العظم والأم الجافية».

بعد يومين أجابني الدكتور نيوكِرْك برسالة يُعلمني فيها باستلامه للبريد السريع، وإن لم يكن اطّلع بعد على محتوى القرص المُدْمَج. ثم رسالة ثانية بعد مراجعة الصور. أكد في الرسالتين على ضرورة إجراء جراحة وإن كانت في قوله: «جراحة كبيرة نظرًا لاختراق الورم للعظم [...] واستشراسه وارتجاعه عدة مرات في فترة قصيرة». وأشار إلى ضرورة تركيب رُقعةٍ جديدة على ما في الأمر من تعقيدات. أما العلاج مرة أخرى بالإشعاع فربما يكون واردًا وإن ألمح إلى تشكّكه في جدواه في حالتي.

بدت الأسابيع التي تلت حصولي على نتائج الفحوص يوم الأحد الثالث والعشرين من يونية أسابيع غريبة مزدحمة بالمراسلات والاتصالات وما يستتبعها من خطوات لازمة. رسائل إلكترونية. أسئلة. أجوبة. تقارير. نصوّرُها. ننقلُها إلى الكمبيوتر. نحفظُها. نُرْفِقُها بالرسائل الإلكترونية. أقراص مُدْمَجَة نُسلّمها لشاب من شركة البريد السريع. يدقّ الباب حسب الموعد. يسلّمُنا استمارةً من نسختين، نملؤها: نكتبُ عليها اسمَ المُرسِل والمُرْسَل إليه والعنوان ورقم التليفون. يكتب الشابُ المبلغَ المطلوب ويوقّع باسمه. يضع القرصَ المُدْمَجَ في مظروفٍ يُغْلِقُه. يضيفُ إلى غلافِه البلاستيكيّ الشفّاف نسخةً من الاستمارة التي ملأناها. ننقُدُهُ المبلغَ المطلوب



ويُسلِّمُنا نسخةً ثانية يتيح لنا رقمُها متابعةَ خطِّ سيرِ الرسالةِ عبر الموقع الإلكترونيّ للشركة.

رسالة للدكتور نيوكرك بمستشفى جورجتاون. ثانية للدكتور أكمل صفوت بمستشفى جامعة أُرهوس. ثالثة للدكتورة برجيتا في المستشفى نفسه. اتصّالات تليفونيّة محليّة ودوليّة. اتصالات بالمِرسال الإلكتروني. اتصالات بالدليل للاستعلام عن أطباءَ بعينهم. أرقام تليفوناتهم، عناوين عياداتهم، مواعيد الكشف. نذهب إليهم لاستشارتهم. نحملُ معنا التقاريرَ القديمة وبعضَ نتائجِ الفحوصِ التي أُجْرِيَت قبل أسابيع. أو نذهب لإجراء فحوصٍ أخرى، إلى المستشفى. إلى معملِ التحاليل. إلى مركزِ الأشعّة. نُجري عشرات التحاليل المألوفة وغير المألوفة. ثم أشعّةٌ جديدة في مركز لم أذهب إليه من قبل للحصول على صور للأوعية الدموية في الرأس والعنق. أحملُ الصورَ إلى البيت. أتطلّعُ فيها: أوعيةٌ مُلوّنة غليظة شجريّةٌ متفرّعة. أستغربُها كأنها ليست جزءا من جسمي تلازمه وتضمن بقاءَه. ساعي البريد مرةً أخرى. يدقّ الباب. يحمل القرصَ المُدْمَج. يمضي.

أكمل يقول لي في مكالمة تليفونية إن بإمكاني توجيه ما يشغلني من أسئلة إلى الدكتور جورم الذي أكد بعد إطّلاعه على التقارير أن الجراحة «ممكنة». أكتب له:

العزيز أكمل،

آمل أن تكون بخير. هذه هي الأسئلة التي أحب أن أسألها لجرّاح المخ والأعصاب:

«ما الفرق بين استخدام بديلٍ معدنيّ للعظم المستأصل من الجمجمة، والمادة المطبوعة ثلاثية الأبعاد التي قرأتُ عنها، من حيث الوقت والتكلفة والوظيفة؟

مدى التوسّع المطلوب في الجراحة لمواجهة احتمالات عودة الورم إلى منطقة الرأس، وحماية المخ؟

حتى الآن تم تركيب رقعتين في رأسي، الأولى استُخدمت فيها عضلةُ اللاتيزيموس دورساي المستأصلة من تحت الكتف الأيمن، والثانية مأخوذة من بطن الساعد الأيسر. هل يتم استبدالهما؟ ومن أين يتم أخذ المطلوب للرُّقعة الجديدة؟

عانيتُ من قبل من مشكلات تدفّق الدم في الرقعتين بسبب الدقة الاستثنائية لأوعيتي الدموية، وهو ما تسبب في فشل رقعتين جلديتين استُصلتا من كلا الفخذين، في جراحتين متعاقبتين عام ٢٠١١، ثم مشكلة تم التعامل معها في رُقعة من ساعدي الأيسر في جراحة عام ٢٠١٣.. ثم سؤال أخير: ما المدة المُتَوَقَّعَة لوجودي في الدانمارك لإجراء الجراحة؟».

قبل الإجابة عن هذه الأسئلة، كان الدكتور جورم أرسل لي رسالة مُطَوَّلة بها ستة أسئلة تستوضح تفاصيل تاريخ المرض منذ بداياته. وقد أجبت عن أسئلته مع ملحوظة اعتذارية عن احتمال عدم الدِّقَّة في استخدام بعض المصطلحات الطبيّة. أنهيت الرسالة بالفقرة التالية:

«أنا في السابعة والستين. أعي مدى شراسة هذا الورم السرطانيّ وضعفِ إمكانية الإفلات منه. أنا بطبيعتي مقاتلة، ولكنني بلغت قدرًا



من النضج يسمح لي بالتمييز بين معركةٍ يمكن أن تحقق أهدافَها، ومعارك دون كيشوتية لا جدوى من خوضها. إن كان ارتجاع الورم سيتكرر بهذا المُعَدَّل ألا تقتضي الحكمة المُضِيّ في مسار آخر؟ أعني ترك الأمور على ما هي عليه والانتفاع بالوقت المتاح في إنتاج ما يمكن إنتاجه، ربما إتمام كتاب جديد أو مراجعة رسالة دكتوراه يحتاج صاحبُها أو صاحبتُها إلى إشرافي. أم يكون هذا المسار شديد الخطورة؟ باختصار سؤالي هو: ما هي فرص الإفلات؟ أيهما أكثرُ حكمة: إجراءُ جراحةٍ جديدة أو الإحجامُ عنها؟ سأكون ممتنّة لنصيحتك.

مع تمنياتي الطيبة،

رضوى عاشور».

في الأسبوعين التاليين كان علينا التقدم بطلب تأشيرة للسفر إلى الدانمارك. ولما كانت الدانمارك من دول الاتحاد الأوروبي يصعب الحصول على تأشيرة لدخولها، لأن هذه التأشيرة تتيح السفر إلى كل دول الاتحاد وتتطلب بالتالي موافقة هذه الدول.. طلب أكمل من المستشفى إرسال خطاب إلى القنصلية يفيد بموعد الجراحة. وطلب المستشفى مبلغًا تقديريًّا لتكلفة العلاج، كان علينا تحويله من البنك قبل السفر. وطلبت القنصلية الوثائق المعهودة. قدمناها أنا وتميم. وكان مُريد في عمّان لأن شقيقه اضطر للسفر ولا بد من وجوده في البيت لرعاية والدته. ثم اكتشف أنه لا توجد سفارة دانماركية في عمّان وأن أقرب موعد يمكن الحصول عليه لطلب التأشيرة من

القنصلية الراعية لشئون الدانمارك، بعد ثلاثة أسابيع. اتصل بغسّان، ابن أخيه. طار غسان من فرنسا إلى الأردن لرعاية جدته. وطار مُريد من عمان إلى القاهرة للتقديم للتأشيرة.

أتفهّم الآن وأنا أسترجع تلك الأيام، لماذا قررتُ بتلقائية أن أنتهي من «أثقل من رضوى» وأُسَلِّمُهُ للناشر على وجه السرعة. لم تكن الحركة المزدحمة بالأطباء ومطالبهم والرسائل إلى... ومن... هي وحدها المتسببة في الاختناق المروري بل الحَدْسُ السابقُ عليها، بأنني على وشك التورّط في جولة علاجية جديدة، وهو حَدْسٌ صار يقينًا بعد أيام معدودة.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أمر ربما انتبهتما له يا عزيزيّ القارئ والقارئة، وهو أن هذه المراسلات والمكالمات والعيادات والفحوص وطلب التأشيرات... إلخ تمّت بين الأسبوع الأخير من شهر يونية وأواخر شهر يوليو. فلما كان يوم الثلاثين من يونيو، نزلتُ أنا ومُريد إلى الشارع لنشارك الناس احتجاجهم على سياسات الرئيس محمد مرسي. أما تميم فقد بدا متوجِّسا من مترتِّبات هذا اليوم.. أقر بفشل سياسات الرئيس المُنتخب، وإن أفزعه التحالف مع الجيش والداخلية والفلول، فلزم البيت.

بسرعة وفي تطور للأحداث مثير للقلق، استولى وزير الدفاع على الحكم، ألقى القبض على محمد مرسي. بعد ثلاثة أسابيع طالب وزير الدفاع الناس بالخروج إلى الشارع لمنحه تفويضًا. لم نعط تفويضًا. لم ننزل. كانت زميلتي متفقة مع تميم في رأيه، تشاركه توجّسه. لزمت بيتها في الثلاثين من يونية. اختلفتُ معها ثم بعد أيام



قليلة ومع هذه الأحداث المستجدّة التي لا تبشّر بأي خير، اعتذرتُ لها كما اعتذرت لتميم. قلت: كنتما على حق.

في يوم الثامن من يولية، لسبب أو آخر وعلى غير عادتي، استيقظت قبل الفجر. قلت لنفسي وأنا أعد قهوتي الصباحيّة، اليوم عيد ميلاد مُرِيد، لعلنا نجعله يومًا رائقا لطيفًا نُسعده فيه بشكل ما. لم يحدث. قضينا اليوم مسمّرين أمام التلفزيون والكمبيوتر نتابع بجزَع أحداث اشتباكات الحرس الجمهوريّ وسقوط العشرات من المصابين والقتلى من أنصار الرئيس محمد مرسي المتظاهرين هناك.

كنا مضطربين، تعكس اضطرابَنا تفاصيلُ صغيرة: تميم مدعو لمهرجان أدبي كبير في البرازيل. تم الترتيب للرحلة منذ شهور. قبل سفره بيومين، سحب تميم جواز سفره من القنصلية الدانمركية مع وعد بإعادته ما أن يعود إلى القاهرة. فاتته الطائرة. تصوّر أنها تقلع بعد الظهر وكانت تقلع في التاسعة صباحًا. سافر في اليوم التالي. وصل لندن. وفي انتظار موعد إقلاع رحلته إلى ساو باولو سقط منه جواز سفره دون أن ينتبه. ضاع الجواز. لم يذهب إلى البرازيل. عاد ومعه وثائق محضر الشرطة الخاصة بفقد الجواز وانهمك لأيام في استخراج بدل فاقد.

يوم الحادي عشر من أغسطس أوصلنا أخي حاتم إلى المطار. ونحن نقدم جوازاتنا وتذاكر السفر إلى موظفة شركة مصر للطيران، انتبهت الموظفة إلى أن تأشيرة مُرِيد تسري بدءا من اليوم التالي. أصرّت على عدم السماح له بالسفر. ودّعنا مُرِيد واتجه إلى مكتب الشركة ليغيّر موعد رحلته، ويدفع غرامة لتخلفه عن السفر!

الفصل الرابع

## سرير في ممر

«أعتقد أنني محظوظة».. هذا ما قلته للصحفية الدانماركية التي طرحت علي أسئلة لنشر أجوبتي عنها دون ذكر اسمي، في مجلة المستشفى. ولما كانت الصحفية على علم بمرضي وبالجراحة المُعَقَّدَة التي أجريت لي، ولديها صورة لمؤخرة رأسي بعد الجراحة، (كانت مجلة المستشفى أرسلت مُصوِّرًا محترفًا لأخذها بهدف نشرها مع المقال)، لم تفهم عبارتي. بدت مندهشة. وعندما أرسلت لي مُسَوَّدَة المقال لمراجعته انتبهتُ أنها حذفت العبارة.

قلت لم أُكَلِّف نفسي شرح ملحوظتي عن كوني محظوظة. لم يكن هناك مجالٌ للحديث عن انتمائي لبلد يدفع فيه المرضى تكاليف باهظة لعلاجهم في مستشفيات خاصة، أو لا يملكون وفرةَ المال فلا يجدون سريرًا في المستشفيات العامة، وإن وجدوه فقد يتشاركون فيه مع مريض آخر. أما المرافق أو المرافقة التي يتعيّن عليها خدمة

المريض فتفترش حصيرة أو بطانية بجوار السرير لتنام عليها. لم أقل شيئًا من ذلك ولا قلت إن ظروفي المادية سمحت لي بالعلاج، رغم تقصير الجامعة مرة ومرتين، ثم تفضّلها بدفع ربع مصاريف العلاج في المرة الثالثة. لم أحكِ لها على طريقة المسنّين المغرمين بالثرثرة واسترجاع تاريخ حياتهم، عن أسرتي وأصدقائي وطلّابي وفيض المحبة الذي أحاطوني به. ولا قلت لها إن طبيبي المعالج في مصر، الدكتور أسامة سليمان، صديقي منذ الطفولة يوليني رعاية الأخ لأخته، ولا أخبرتها أننا حين وصلنا إلى أورهوس كانت عزة وأكمل طبيبا الأورام المتخصصان ينتظران على رصيف المحطة لمصاحبتنا إلى بيتهما واستضافتنا فيه.

استحضرت عبارتي ودهشة الصحفية وأنا أبدأ في كتابة هذا الفصل عن وصولنا إلى أُرهوس. كنا ركبنا القطار ما إن وصلنا مطار كوبنهاجن وأنهينا إجراءات الدخول. يسألني تميم: هل كتبتِ عن السيدة الصوماليّة؟ أقول لا. يقول: لا بد أن تكتبي عنها. أقول: لا داعي. ثم أراجع نفسي، أُفكّر أن المشهد وإن كان ناتئًا يعترض مجرى الحكاية، قد يُعجب القراء.

كانت السيدة الصوماليّة (امرأة في الثلاثينيات من عمرها على ما أظن)، تجلس مع أولادها في المقاعد المجاورة لنا. لأول وهلة بدا لي أنها تحدّث نفسها، ثم انتبهت أنها دسّت تليفونها المحمول على أذنها اليمنى تحت الحجاب. لم تنقطع السيدة عن الحديث بصوت



مسموع عالٍ نسبيًّا، طوال الرحلة. تتكلم بشكل مُتّصل كأن الطرف الآخر لا يتدخّل إلا بعبارة هنا أو هناك. لا تتوقّف إلا لتوبّخ طفلًا من أطفالها (كانوا يجلسون خلفها)، لأن صوته ارتفع بما لا يليق، أو لتتبادل معي حديثًا خاطفًا قبل الوصول. قالت لي اسمها وأسماء صغارها وأعلمتني أنها من الصومال، ففهمت أنها كانت تتحدث باللغة السواحيلية. كان تميم منزعجًا من الكلام الذي لا ينقطع. واقترح أن ننتقل إلى مكان آخر فقلت له قد لا نجد، ولم أقل إنني مستمتعة بمتابعة حديث لا أفهمه، وبمداعبة الصغير الذي انتقل من الصفّ الذي كان يجلس فيه مع إخوته، واستقر بالقرب من أمه فصار في المقعد المواجه لي.

كان الولد (صبي في الرابعة من عمره، على ما قدّرت)، شديد الجمال، في وجهه هذا الاختصار المدهش للعلاقة القديمة بين شبه الجزيرة العربية وشرقي القارة الإفريقية. وكانت له ضحكة آسرة تكشف عن أسنان صغيرة نضيدة وروح عذبة. أخذت ألاعبه: أمدُّ يدي على المائدة الصغيرة التي بيننا، وأطالبه بلمسها أو ضربها، وقبل أن يصيبها أسحبها بسرعة فيضحك. أعيد الكرّة، أو يمدُّ هو يده وحين ينجح في سحبها بسرعة تغدو الضحكة كركرةً مبتهجة. واصلت ملاعبته وسرت العدوى إلى تميم فراح يلاعبه، ثم قام واشترى له بونبوني. توقّفت الأم عن الحديث دقيقة وشكرت تميم ثم طلبت من الصغير مشاركة إخوته، وعادت إلى مكالمتها التليفونية.

وصلنا إلى أُرهوس بعد ثلاث ساعات ونصف الساعة. قبل أن نغادر القطار لمحت عزة وأكمل على رصيف المحطة.

أين مُريد؟ حكينا لهما ما حدث في مطار القاهرة، ثم انتقلنا معهما في سيارتهما إلى بيتهما. وكانا أصرّا قبل وصولنا أن ننزل عندهما. أراد مُريد أن يستأجر لنا شقة صغيرة بالقرب من المستشفى. فسايرته عزة. قالت: توصلوا الأول بالسلامة، بعدها نناقش الموضوع، ثم إن لدينا موعدًا في المستشفى في الثامنة من صباح اليوم التالي لوصولكم وموعدًا آخر مع فريق الأطباء صباح الأربعاء. وصباح الخميس علينا أن نكون في المستشفى في السابعة صباحا لإجراء الجراحة. سيكون أسهل لنا أن تبيتوا معنا، فنذهب معًا إلى المستشفى.

في مجموعة من الصور التقطتها لي عزة على تليفونها أو تليفوني، لأنني على الأرجح، طلبت منها أن تفعل، كأنني أردت أن أسجّل لحظة أقف فيها على قدميّ وأبدو في هيئتي المعتادة.. أقف مستقيمةً. أرتدي بنطلون أسود وتي شيرت أبيض عليه قميص، على أبيضه القطني الخفيف نقش أزهار دقيقة خافتة اللون. وفوق القميص سترة قطنية لونها بيج فاتح، أشبه بسترات الشباب والرياضيين. أضع يدي اليمنى في جيب السترة، وعلى يدي اليسرى ضمادٌ صغير من الشاش وضعته الممرضة بعد انتهائها من سحب الدم المطلوب للتحاليل. في الوقفة والملبس والشعر الصبيانيّ القصير تكذيبٌ للمرض وللشيب الغالب على الرأس. أبتسم. في الخلفية بوابة زجاجية إطارها أبيض لمبنى بالطوب الأحمر تُمَيِّزه صفوف عرضية من النوافذ المتجاورة ذات الأطر البيضاء. تظهر أعلى البوابة عبارة:



Aarhus Universitetshospital

(مستشفى جامعة أُرهوس)

إنه المبنى رقم عشرة. سأدخله للمرة الأولى يوم الاثنين الثاني عشر من أغسطس، اليوم التالي لوصولي، أقضي فيه ساعتين لإجراء بعض التحليلات، ثم أعود إليه صباح الخميس الخامس عشر من أغسطس، ولن أغادره قبل أسبوعين، لأن الجراحة التي أجريت لي فيه ستُلزمني غرفة العناية المُركَّزة لمدة أسبوع ثم غرفة أخرى من غرف جناح آخر لأسبوع ثان.

في المبنى رقم عشرة، أثناء انتظاري لدوري لعمل تحليل من التحاليل المطلوبة، استوقفني شاب دون العشرين على ما قدّرت، يجلس في قاعة الانتظار، على رأسه تركيبة أشبه بإطار من قضبان حديدية دقيقة. تساءلت عن معنى هذه التركيبة وضرورتها الطبيّة. لم يرد بخاطري قط أنني حين أغادر المستشفى بعد إقامتي فيه سأحمل على رأسي تركيبة مشابهة، وإن لم تكن مطابقة.

انتهينا من التحاليل وغادرنا المستشفى. صحبتنا عزة إلى سيارتها. كان تميم قرر أن يسافر إلى كوبنهاجن ليستقبل والده في المطار ويرافقه في رحلة العودة إلى أُرهوس. تستغرق الرحلة ذهابًا وإيابًا بالقطار سبع ساعات. قال تميم: ظهر أبي يوجعه وقد تكون حقيبته ثقيلة. ضحك: يروقني دور العتّال! أوصلناه إلى محطة القطارات، ثم أخذتني عزة في جولة لتعرِّفَني على المدينة. صحبتني بالسيارة إلى الغابة، إلى البحر، إلى الميناء. صفّت السيارة. سرنا على رصيف الميناء الصغير حيث تصطف اليخوت والمراكب الشراعية الصغيرة.

هبطنا باتجاه الشاطئ. خضنا في الرمل. التقطنا صورًا تحت سماء غائمة تمطر مطرًا خفيفًا. ركبنا السيارة مرة أخرى. عدنا لصفِّها بالقرب من وسط المدينة: هذه هي كاتدرائية أُرهوس. ذاك مسرحها. هذا نهرها. هنا المنطقة المخصّصة للمشاة. سرنا فيها ونحن نثرثر ونتبادل الأخبار عن مصر. (نعم نتبادلها، لأن عزة وهي في الدانمارك، تذهب إلى عملها في المستشفى يوميًا فتغادر البيت في السابعة صباحًا ولا تعود إلا بعد الظهر، تتابع تفاصيل ما يجري في مصر ولا تنتظر أن تأتي زائرةٌ مثلي من القاهرة لتنقلها لها).

لا أذكر إن كنا تسكّعنا في الشوارع إلى أن حان موعد القطار القادم من كوبنهاجن في الثامنة مساءً، لنستقبل مُرِيد وتميم، أو جلسنا في مقهى لبعض الوقت، أم عدنا إلى البيت ثم غادرناه إلى المحطة.

تناديني عزة بـ«ياخالتي» لأنني صديقة أمها وأبيها منذ ما يقرب من ثلاثين عاما. أحب هذا النداء منها. عرفتها أولًا قبل أن أتعرّف على أكمل. كانت طالبة في كلية الطب، صغيرة القَطْع، خفيفة الروح، سريعة الحركة والبديهة، ولها أسطول من الصديقات والأصدقاء، معظمهم مثلها أذكياء منتبهون حيويّتهم لافتة. لاحقًا عندما تزوّجت عزة تعرّفتُ على أكمل، لكنني لم أعرفه كما عرفته وقد غدا الطبيب المُعالِج، يتابع وضعي الصحي، وأقيم معه في بيته في أُرهوس التي لم أزرها من قبل وإن بدا اسمها أليفًا لأنهما يقيمان ويعملان فيها،



ولأن صديقينا محسنة توفيق وأحمد خليل يسافران إليها مرة كل عام أو بضعة أعوام لزيارة ابنتهما وأسرتها.

عدنا بمُرِيد وتميم من محطة القطارات، وكان أكمل الذي اكتشفت مهاراته في الطهي، وأنه يكاد يفوق حماه، أحمد خليل في هذا الأمر، قد أعد لنا عشاءً شهيًا، وكانت نادية صغرى البنتين أعدت المائدة بحرص وأناقة.

صباح الأربعاء، ذهبنا إلى المبنى رقم خمسة بالمستشفى حسب الموعد المُحَدَّد سلفًا للقاء فريق الأطباء المسئول عن العملية. جلسنا في قاعة فسيحة بها مائدة لها جانبان بينهما فراغٌ كأننا في ندوة أو جلسة في مؤتمر. أنا ومُرِيد وتميم وعزة في جانب، وفي مقابلنا فريق الأطباء المُكَوَّن من جرّاح المخ والأعصاب وجرّاحَتَي التجميل وطبيبة التخدير والطبيب المعالج. شرح لنا الفريق خططه بشأن الجراحة والعلاج، وعزّزوا الكلام بصور على شرائح تظهر على شاشة في جانب من القاعة. استمعوا إلى استفساراتنا وأجابوا عنها.

بهذا اللقاء اكتمل الإعداد لليوم التالي الذي تُجرى فيه الجراحة.

قبل السابعة من صباح الخميس الخامس عشر من أغسطس، كان المصعد يحملنا أنا ومُرِيد وتميم وعزة إلى الطابق الخامس من المبنى رقم عشرة. بحثنا عن الممرضة المسئولة فعيّنت لنا الغرفة. ثم أتت لي بثياب المستشفى. بعد قليل جاء أكمل للاطمئنان عليّ، ثم جاء ممرض ودفع بالسرير الذي يدرُجُ على عجل. لم أعد أذكر

إن كنا استخدمنا المصعد أم بقينا في الطابق نفسه. يؤكد لي تميم أنني انتقلت إلى الطابق الثامن حيث أوقفوا السرير في ممر خارج غرفة العمليات. كذلك لا أذكر هل ثبّتت الممرضة «الكانولا» وأعطتني حقنة ما، حين كنت في الغرفة أم فعلت في الممر أم تم ذلك بعد أن دفعوا بالسرير إلى داخل غرفة العمليات. أذكر أنني أحببت قماش الملاءة وكيس الوسادة وغلاف الغطاء، وكان قطنيًا ناعمًا أبيض به خطوط دقيقة زرقاء. وأذكر خفيفًا لحظة دخولي إلى غرفة العمليات أو غرفة إعداد ملاصقة لها. عن يساري رأيت طبيبة شابة قالت لي إنها طبيبة التخدير، وربما قالت شيئًا آخر لم أعد أذكره. ولكنني أذكر أنها كانت تبتسم وأنني أجبت على ابتسامتها بالابتسام.



الفصل الخامس

## «كن جديرًا برائحة الخبز»

تقول عزة إنني دخلت غرفة العمليات في الثامنة والنصف صباحًا، وإن الجرّاحين بدءوا الجراحة في حوالي العاشرة والنصف وانتهوا منها بعد ما يقرب من ثلاث عشرة ساعة. وكان الدكتور جورم على اتصال بأكمل من داخل غرفة العمليات ينقل له أحيانًا عبر هاتفه المحمول بعض التفاصيل. تقول عزة: في الحادية عشرة ليلًا توجّهت مع مُريد وتميم إلى غرفة العناية المُرَكَّزة. دخلت عليك قبلهما. قلتِ لي: إزيِّك يا عزوزة، أنا كويسة. قلت لك: مُريد وتميم برّه تحبي تشوفيهم دلوقتِ؟ قلتِ: أنام شوية، وغفوتِ. بعدها حين دخل مُريد وتميم وسلّما عليكِ كنتِ تستيقظين قليلًا ثم تنامين. قلتِ لهما إنك بخير، الحمدلله. وأجبتِ على الدكتور جورم حين سألك: How do you feel? بعبارة I am perfect وكانت طالبة مُتَدَرِّبة من كلية الطب تقف وراء ظهرك تمسك بالتركيبة المثبّتة في رأسك لكي لا تتسبب أي حركة منك في تغيير وضعها. (بعدها قال

لي مُريد إنهما كانا اثنين، فتى وفتاة يتناوبان الوقوف خلف رأسي لمتابعةِ وضعِ التركيبةِ المثبّتةِ فيه).

طوال فترة وجودي في العناية المُركَّزة، في المبنى رقم عشرة، وبعدها عندما نُقلت إلى غرفة في المبنى رقم خمسة، سينزل مُريد وتميم في فندق داخل المستشفى على بعد خطوات مني.

تحكي عزة: كان مُريد أول من زارك في الثامنة من صباح اليوم التالي، الجمعة السادس عشر من أغسطس، كان أكمل اتصل بالمستشفى قبل ذلك فعرف أن الليلة مرّت بسلام، وأنهم أجروا لك أشعة مقطعية للتأكد من عدم حدوث نزيف في المخ. وجدوا كل شيء على ما يرام. اتجه أكمل إلى المستشفى، وقبل ذهابه إلى مكتبه في المبنى رقم خمسة، مرّ على مُريد في الفندق وطمأنه على وضعك، وتناول معه الشاي.

ولما وصلت عزة صحبت مُريد وتميم لزيارتي. تقول عزة: كان فريق الجرّاحين في الغرفة. قلتِ إنك بخير وكلمتنا بالعربي والإنجليزي. قلتِ لنا: صباح الخير، أنا كويسة. وقلتِ للجراحين: I'm absolutely fine. ثم قلتِ: I'm sorry I vomited.

لا أذكر أيًا من هذه التفاصيل التي سجّلتها عزة بخط يدها في خمسة أوراق من القطع الكبير كتبت على وجهَي كل ورقة منها. ولكن الغريب أنني أذكر دون باقي التفاصيل اعتذاري للأطباء لأنني تقيّأت، ربما لأن الأمر ضايقني وأحرجني، لا في لحظة حدوثه فحسب، بل أيضًا عند تذكّري له في الساعات التي أعقبته. بضع ساعات لا أكثر،



لأن ما جدّ من تعقيدات سيُسقط عمل الذاكرة، أو على الأقل الذاكرة الموعيّ بها وبما تستدعيه.

تقول عزة إنهم عادوا إلى البيت هي وأكمل ومُريد وتميم. تناولوا الطعام ثم توجّهوا مرة أخرى إلى المستشفى في المساء. وجدناك أقل استقرارًا، تتحركين كثيرًا في السرير، والطالبة التي تمسك بالتركيبة المثبّتة أعلى رأسك تطلب منك أن تكفّي عن الحركة. سألك تميم: «إنت عرفاني يا ماما؟» لم تردّي.

تحت عنوان السبت ١٧ أغسطس، كتبت عزة أن أكمل اتصل بالعناية المُركّزة فعلم أن الليلة مرت بسلام، وإن تعرّضتِ في الصباح الباكر لعدم الاستقرار ولبعض المشاكل في التركيز. تم أخذ عيّنات من الدم كشفت عن وجود زيادة في نسبة ثاني أكسيد الكربون، وهو ما فسّره الدكتور جورم لأكمل بأنك لا تتنفسين بكفاءة وربما أصبتِ بالتهابٍ رئويّ. قرر جورم وضعك على جهاز التنفّس الصناعي وعمل أشعّة وتحاليل جديدة. زارك فريق الأطباء عدة مرّات في ذلك اليوم للاطمئنان على الوضع، والكشف على الرُّقعة والتركيبة المُثبّتة أعلى الرأس.

سأنتقل من مخطوطة عزة وأوضح لكما يا صاحبَيّ الكريمين أن تركيب جهاز تنفّس صناعي كان يتطلّب تخديري بشكل كامل، أي وضعي في غيبوبة مُتعمّدَة، يسمونها «إنْديُوسْد كُوما». لا أعي ما يدور حولي أو داخلي طوال سبعة أيام، لا أذكر منها سوى بياض

مترام شبيه بما أشار إليه محمود درويش في جداريّته وصفًا لتجربة مشابهة. يقول درويش:

«كلُّ شيءٍ أبيضُ

البحرُ المعلَّقُ فوق سقفِ غمامةٍ

بيضاء. واللاشيءُ أبيضُ في

سماءِ المطلقِ البيضاءِ. كنتُ ولم

أكن. فأنا وحيدٌ في نواحي هذه

الأبدية البيضاء...

...

... أنا وحيدٌ في البياض،

أنا وحيدُ.

أتأمل الأبيات فأقول لنفسي: لا غمامةَ في لحظةِ الغياب، لا بحرَ أو سماء أو وعيَ أبديةٍ أو انقطاع. لم أشعر بأنني وحيدةٌ، لأنني في الغيبوبةِ الكاملة لا أعي وجود الآخرين أو موقعي من الدنيا ومنهم. وحده البياض كان حاضرًا، ومربعٌ زجاجيٌّ كبير كأنه مائدة (سألتُ بعدها إن كان هناك، قيل لي: لم يكن). ألمح خلال زجاجِهِ البللوري طيفَ شخصٍ ما أو يدًا تمتد. هل هي يدُ مُريد؟ هل هي لحظةٌ خاطفة أُفيقُ فيها؟ أذكر صوتَه وهو يكرِّرُ: أنا مُريد يا ماما. أنا مُريد. ده تميم يا ماما. إن كنتِ سامعاني، اضغطي على إيدي. أسمعه. لا أملك



الاستجابة بالرَّد أو الضغط على يده. يقول تميم: كنتِ ترفعين يدَيكِ في اتجاه رأسك ثم تسقطينهما فجأة في حركة يائسة. هل كان الكلام يربكني؟ كيف يعرِّفني زوجي بنفسه وبابني؟ هل صرت بحاجة لتعريفي بهما؟!

يرتفع ضغط الدم بشكل مستلفت، يشير له الجهاز. (هذا ما نقله لي تميم بعدها. ولكنني لا أذكر شيئًا من ذلك). لاحقًا عرفتُ أنني أُصِبتُ في تلك الأثناء بقُرْحَة عصبيّة في المعدة. أرى مُرِيد. أرى تميم. أرى عزة وأكمل. ألمحهم كالومضِ أحيانًا. لا أعي متى يذهبون ومتى يعودون. هل كان هناك نفقٌ طويل أنزلق فيه؟ هل هو «الممرُّ اللولبيُّ» الذي ذكره درويش في «جداريَّتِه»؟ كيف أَنْزَلِق وأنا ممدّدة على السرير، لا يمكنني تحريكُ أيِّ جزء من جسمي؟! حتى رأسي، لا أملك الميلَ به طفيفًا، لأن البنت أو الولد المنوط بهما متابعة التركيبة المُثَبَّتَة فيه يحولان دون ذلك. ربما كانت الروح هي التي تنزلق.

كنت بدأت في الخروج من الغيبوبة، حين سمعتُ المكالمات التليفونية الثلاث. يمسك تميم بهاتفه المحمول وقد ضبطه على مُكبِّر الصوت. أسمع صوت ماجدة رفاعة، ابنة خالتي، تقول: «أهلًا أهلًا أهلًا» بلهفةٍ واندفاع.. قلت: «أنا تعبت يا ماجدة. اتبهدلت»! ثم بكيت.. ويبدو أنني أجبت بنفس العبارات حين سمعت صوت أخي حاتم. ثم صوت صديقتي حسناء. حدّثوني تباعًا: ماجدة من باريس، وحاتم من القاهرة، وحسناء من بيروت. أسمع صوتَ كلٍّ بوضوح. أعي وجوده. أعي ما جرى لي. ولكن البكاء كان علامة خيرٍ

على ما يبدو، لأن أكمل، وهو ما قاله لي مُريد لاحقًا، رَقَص فرحًا،
أي والله رَقَص! وقد رأى في انتحابي استجابةً تشير إلى أنني أفلتّ.
كُتبت لي الحياة، على الأقل في هذه الجولة.

ورغم استجابتي، لم يكن استردادي للوعي كاملًا لأن هذه الفترة شهدت الهلاوس. عايشتُ بعضَها بصمت ولم أحك عنه إلا بعد خروجي من المستشفى. وشاركتُ الآخرين في بعضِها فعرفوا أنها هلاوس. لم تكن هلاوسي شِعريّة مكثّفة كهلاوس درويش في غيوبته. كتب درويش:

«رأيتُ رفاقي الثلاثة ينتحبون

وهم يخيطون لي كفنًا بخيوطِ الذهب

رأيت المعرّي يطردُ نقاده من قصيدته:

لست أعمى

لأبصر ما تبصرون!

.........

رأيت بلادًا تعانقني بأيدٍ صباحية، كن

جديرًا برائحةِ الخبز. كن

لائقًا بزهور الرصيف

فما زال تنور أمك



مشتعلًا،

والتحيةُ ساخنةٌ كالرغيفْ!».

على غير حالة درويش، كانت بعض هلاوسي أرضيّةً فيها من مشاغل النساء، نثرُ الحياةِ اليومية وتفاصيلُها البسيطة: قلت لمُريد أن يتّصل بلبنى، جارتي وزوجة أخي وائل، لتطلب من السيدة التي تساعدنا في الطهي، أن تعِد طعامًا وفيرًا للضيوف، فالمؤكد أنهم سيأتون للتهنئة بعودتنا وبالعيد، ولا بد من إكرامهم.

لم أشارك أحدًا في الهلوسة الممتدة التي رأيت فيها ابنًا من أبناء صديقة لي يجيب على تعليق من زوجته بطعنةِ سكين. قتلها. عشتُ هَرَجًا ومَرَجًا وصخبًا وزحمةً وجوهٍ أعرفُها أو لا أعرفُها. أردت أن أسأل بعد أن أفقت، عن صديقتي وزوجِها إذ بدا لي أنهما ماتا من وطأة ما فعله ابنهما. بعدها، بدا لي أن ما رأيتُه فيلمٌ سينمائيّ أخرجه الابن، وأنني أتابع الفيلم وأنا أجلس بجوار مُريد في المستشفى. ارتحت للتعديل، ولكنني بقيت على توجّسي من السؤال عن صديقتي وزوجها، خائفةً من أن أعرف أنهما رحلا.

ربما كنت انتقلت من العناية المُركّزة، حين قلت لمُريد إن تميم ذهب بالقطار إلى إستوكهولم ليأتي بمصطفى سعيد وإنهما سيعودان لعمل حفل موسيقيّ في المستشفى. كلّمت الطبيبة عن الحفل، حدثتُها عن ابني الشاعر وصديقه الموسيقيّ. استمَعَتْ ولم تُعلّق. أما مُريد فأكد لي أن تميم نائم في فندق المستشفى: أمضى الليلة جالسًا بجوارك، لم ينم إلا فجرًا. لم أصدّقه. بقيت أُفكّر في الحفل،

أتساءل بدهشةٍ وقلق: لماذا اختار تميم ومصطفى أن يقدّما إعدادًا شعريًا وموسيقيًا لـ«أليس في بلاد العجائب؟». أُفكّرُ أن هذا مناقضٌ لاهتماماتِ كلٍّ ومشروعِه. شغلني الأمرُ لفترة بل تصورتُ أنهما وصلا، وأن مصطفى يضبطُ الآلات في باحة المستشفى. لم يكن يضبط أوتار عودِه بل خِلتُهُ ينفخ في ترومبيت!

أقول لتميم: ما دمنا قريبين من جبل طارق، لا تفصلنا عنه إلا خطوات، اذهب إليه لتراه. يقول لي: نحن في الدانمارك يا ماما!
أقول: أعرف أننا في الدانمارك، لكن جبل طارق على بعد خطوات مِنّا. يختلط عليّ شمالُ القارة الأوروبية بشمال إفريقيا. يبدو لي أن الذهاب إلى جبل طارق لن يكلّفه إلا مغادرةَ المستشفى والانحرافَ يسارًا والسيرَ دقائق فيصل المضيقَ وعُدْوَةَ المغرب، يتطلع عبرهما فيرى الجبل. أواصل الهَلْوَسَة فأراني مع مُريد، نجلس في مقهى ما في الطابق الأول من فندقٍ صغير عند سفحِ الجبل (جبل طارق). أذكرُ الزجاجَ الفاصلَ بين المقهى ونباتات خضراء كثيفة خارجه. وأذكر ستارةً شفّافةً بيضاء مُسْدَلَةً على نافذةٍ ما، تتطايرُ بفعل نسمةِ هواء، أشعرُ ببرودتِها على جسمي.

ثم هَلْوَسَةٌ ممتدةٌ ذات فصول: صحراءٌ مترامية، أخوضُ بقدميّ في رملِها وأتوغّل. تحيط بي الكُثْبان. تملأ أنفي خشونةُ حبّاتِ الرمل ورائحةُ الخِراف. أستنشقُ هواءً مثقلًا بذرّات الصوف ودَسَم حليبِ النعاج. أرى مبنًى من طابقٍ واحد، مشرعةٌ أبوابُهُ المقوّسة. أدخل. أرى نساءً يجلسن القرفصاء أمام المغازل والأنوال. أقول لنفسي



إنهن بنات القبائل من نساء الأمازيغ. أقف بجوار إحداهن. أتطلّعُ إلى يديها القويتين وهما تعملان بدربَة لافتة. خِلْتُ أنني أرى وشمًا على طرفِ أنفِها، نقطةً خضراء، خفيفةً ثم وشمًا أكثر تحديدًا يمتدُّ من أسفل الشفةِ السفلى إلى نهاية الذقن. ألمحُ نسجيةً مُعَلَّقَةً على جدار. أذهب إليها. أشهقُ. أتطلّعُ مأخوذةً. لم تكن كباقي الزَّرَابي التي تشتغل عليها النساء. لا تشبه زَرَابي الشمال الإفريقي. تخلو من أحمرِها الحرّ وأزرقِها البحريّ العميق. تحيل تعاشيق خيوطِها إلى الدانتيلّا. دانتيلّا سوداء، تُبرِزُ هشاشتَها ودقّةَ خيوطِها خشونةُ الصوفِ الخام التي نُسجت على خلفيته. هل ذكّرتني تلك الدانتيلا بغطاءِ الرأسِ التقليديّ لنساء الأندلس ومراوحهن التي تباع في محلات التذكارات بأزقة قرطبة وغرناطة وأشبيلية؟ لا أدري إن كان هذا الرابط جزءًا من الهلوسة أم يأتيني الآن وأنا أسترجع ما رأيت، في محاولةٍ لمقاربته كتابةً، ولكنني موقنة أنني سمعت صوتًا يقول:

هذه نسجيةُ القدس.

ليست للبيع.

وقفتُ طويلًا أمام النسجيّةِ المُعَلَّقة. ثم عدتُ إلى النساء المُقَرْفِصات لأشاهد ما يصنعنه من الزَّرَابي. ربما اشتريتُ واحدةً منها. ربما انتبهتُ أنني لم أقصد المكان للشراء، فاكتفيتُ بمتعةِ النظر.

ورغم الهلاوس، كانت هناك لحظات من الانتباه. تنقلُني المُمَرِّضاتُ إلى غرفةٍ ما من غرفِ الفحص، يرفعنني بجهاز أقرب

لرافعة. أقول لواحدة منهن إنهن يحملنني كأنني bundle فتسأل عزة: ما معنى كلمة بانِدِل؟ أقول: معناها بُقْجَة. فتضحك وأبتسم.

أتناول قهوتي الأولى بعد أكثر من عشرة أيام. كانت التغذية تتم بواسطة أنبوبٍ دقيق مُثبّت في إحدى فتحتَي الأنف. أنظر إلى القهوة بشَغَف، ولكنني إذ أرشُفُ رشفتي الأولى أعافُها لأنها تلسعُ حلقي كأنها جمرة. أُفَسِّر الأمر الآن بالتهاب في الحَلْقِ خلَّفه أنبوبُ التنفس الصناعي. رَشْفَةُ القهوة، رشفةُ عصير، أو بعضُ قطعةٍ من جبنٍ مطبوخ غدت أمورًا صعبة مُرْهِقَة أتعامل معها ببطء وحرص كأنني أحاولها للمرة الأولى!

غادرتُ المستشفى بعد أسبوعين من دخوله. أقمنا أنا ومُريد وتميم ما يقرب من شهر مع عزة وأكمل والصغيرتين مريم ونادية (ستعترض عزة: ليستا صغيرتين، مريم في العشرين ونادية ستبلغ السابعة عشرة بعد أسابيع!) نقيم معهم. نتردد كل يومين على المستشفى، لا لأن الأطباء كانوا يتابعون الجرحَ والرُّقعة والتركيبةَ المثبّتة في الرأسِ فحسب، بل أيضًا لأن مشكلةً غير ذات أهمية (مقارنةً بجراحة الرأس) خلّفت جُرحًا غائرًا في قصبة الساق، سببته إبرة بقيت في ساقي سهوًا في حومة التعقيدات التي حدثت بعد الجراحة. تكرر عزة: سوء حظ، فعلًا سوء حظ!

كان هذا الموضوع الهامشيّ أكثر إيلامًا من الموضوع الأصلي. محاولةٌ لم تنجح لتركيبِ رُقعة على الجرح. ثم قرارٌ بالتعامل معه كل يومين بتنظيفه بانتظام ولفّه بالضماد. حقنتني الدكتورة جيتا بمُخدِّر



موضعي في قصبة الساق. كانت تحقنه تدريجيًا وببطء. تقول أعطيتك ١٠٪ ثم تتوقف. تستأنف: الآن أعطيتك نصف المطلوب، ثم، لم يبق سوى خمس عشرة في المائة من الحقنة. تعرف مدى الألم الذي تسببه. تكرر أنني امرأةٌ شجاعة. لا أملكُ قولَ شكرًا ولا حتى الابتسام، لأنني أكتمُ الصرخةَ بالضغطِ بيدي على فمي. بعدها ستقوم الطبيبة بقص أجزاء من الأنسجة المحترقة وبكحت مساحات من الجرح الغائر. سيتم التغيير على الجرح كل يومين. كان هذا الغيارُ محنةً حقيقية. ترشُّ الممرضة مخدرًا سائلًا على الجرح. أقل من نصف دقيقة من الهدوء، ثم يبدو لي أن رأسي سيضرب السقف من شدة الألم، والممرضة تُعمل المقصات والملاقط في تنظيف الجرح. تضع عليه مرهمًا. تغطيه بالضماد. تربط ساقي من القدم إلى الركبة برباطٍ طبيّ.

استطعت في تلك الأيام كتابة رسالة إلكترونية إلى زميلاتي في الكلية. كتبت:

«الأعزاء

نبدأ بأمر العملية التي دامت ١٦ ساعة، فأهّلتنا لكتاب جينيس من بين أشياء أخرى، ثم العناية المُرَكَّزة، ثم تعقيدات لا علاقة لها لا بهذه ولا تلك، ولكنها تصدّرت المشهد كأنها هي الموضوع، كأن تحدث مشكلة في ساقي تؤدي بي إلى صعوبة في المشي وإلى ألم مستمر فيها. أما ما يفوق الخيال ويتصدّر المشهد بشكل لا يمكن إغفاله فهو تاج نيرون المُكَوَّن من الحدائد والمسامير وخلافه مما يتقن صناعته

أيُّ سبّاكٍ على ناصية الشارع.. فلقد قرر الأطباء أن «يكللوا» صبري واحتمالي بهذا التاج.. والأرجح أنني بعده أصبح رضوى ذات القرنين! وهنا بيت القصيد.. فلو أضفت هذا العنوان إلى الجزء الثاني من الكتاب لكان لافتا. وأكاد أسمع دعاء تسأل عن أمر هذا التاج، فأقول لها إن التاج هو شكل ما بعد حداثي للرُّقعة (flap)، فبدلا من الرُّقعة الأولى الحداثيّة استخدم الأطباء في خطوة مناسبة للعقد الثاني من الألفية الثالثة، هذه المواسير الحديدية فضلة خير السبّاكين! تميم قلق من إعطائكن انطباعًا خاطئًا بأنني غير قادرة بتاتًا على المشي، وأنا قادرة عليه، ولكن ليس لمسافات طويلة بعد، فالحدائد تاج على رأسي لا قيدٌ على قدميّ. كيف تنامين؟ سألتني أهداف سويف، قلت لها كما ينام خلقُ الله أجد حيّزًا بين الحدائد لرأسي الصغير، أضعه فيه وأنام. عندي أمل أن ينزع الجرّاحون الحدائد أي يخلعوني عن العرش بعد أيام معدودة، وبالتالي يسمحون لي بالعودة سالمة إلى الديار، إن شاء الله».

(أعيد قراءة الرسالة فأنتبه أن الأمر التبس عليّ في تفصيلتين، أولهما أن الجراحة دامت ١٤ ساعة لا ١٦؛ وأن التركيبة لم تكن بديلًا للرُّقعة بل أداةً لتثبيتها).

في إحدى زياراتي المتكررة للمستشفى، سيحدّد لي الدكتور جورم موعدًا لفكّ التركيبة المثبّتة في رأسي. يسمونها في المستشفى: «هيلو» أي هالة. هالةٌ غريبة، صُلبةٌ سوداء، دائرتُها أشبه بالحذوة فهي نصفُ دائرة مفتوحة من ناحية الجبين، فيها خمسة ثقوب يمر من كل



منها مسمارٌ كبير، يقول مُريد إن طوله ٨ سم، (وهي معلومة نقلها له الأطباء فمن غير المعقول أن يكون أتى بمقياس وراح يقيس المسمار لمعرفة طوله بدقة!) كل مسمار منها مثبتٌ في الإطار- الحذوة بصامولة وينتهي في جبيني أو في الجانب الأيمن من الرأس. أخبرني مُريد أن التركيبة مصنوعة من مادة الكربون، استغربت لأنها صُلبة أشبه بقضبان الحديد.

لي مجموعة من الصور محفوظة على لوحي الإلكتروني، صوّرها لي تميم وأنا في بيت عزة وأكمل: شَعري محلوقٌ كمُجنَّد. رأسي مُدَوَّر كرأس أبي. يُبْرِزُ قِصَرُ الشعرِ الشبه بيننا. التركيبة مثبّتة أعلى الرأس. تستوقفني نظرةُ العينين. تحيّرني وأستغربها. هل هو الإنهاك أم شيء آخر كالحزن مثلًا أو التسليم؟ لم أجد إجابة شافية عن سؤالي إلا بعد شهور وأنا أقرأ مقالًا عن الأعراض الجانبية للغيبوبة المُتَعَمَّدَة. بدا لي أنني فهمت. قلت في النظرة انزواءٌ غالب يناقض التطليعة المباشرة لعينين واسعتين موروثتين عن أبي. قلتُ: كأنني مُعلّقة بين الإقدام والانسحاب. بين عناد يناطحُ ويتشبّث، ووهنِ المنبتّ لحظة يغالبهُ اليأس فيوشك أن يدير ظهره ويمضي مستسلمًا.

في الموعدِ المُقرّر لخلع التركيبة، دخل الدكتور جورم الغرفة. أخرج عُدّتَه: مفكّاتٌ دقيقة. كمّاشةٌ صغيرة. مفتاحٌ من النوع المستخدم في فك الصواميل والمُسمّى في مصر بالمفتاح الإنجليزي. راح الجرّاح يفكّ المساميرَ واحدًا بعد الآخر ثم يخلعه. ولما رفع التركيبة، فحص رأسي بعناية وبدا راضيًا عن الوضع.

غادرت المستشفى وقد تحررت من زُمرة الملائكة والملوك،
لا هالة تعلو رأسي ولا تاج يُكَلِّلُها، بل مجرد قبعة أشبه بكاسكيت
الرياضيين تخفي شَعري المحلوق، وتحجبُ الرُّقَعَ الثلاث التي
تفضح العلاقة على مدى السنوات الثلاث السابقة بين رأسي ومشارط
الجرّاحين وإبرهم، أو الدبابيس التي غدوا يغلقون بها الجروح عِوَضًا
عن غُرز الخياطة.

أُغطّي رأسي بالقبّعة البنفسجية التي اشتراها لي مُريد. أمسكُ بعصا
طبّية أتعكّز عليها، وأمشي بحرص من الباب الخلفيّ لبيت أكمل وعزة
إلى سياج خشبيّ تنتهي به حديقة البيت. أمشي نصف دقيقة ثم أتوقّف.
أتأمّلُ شجرةَ البلّوط الكبيرة خارج السياج، أُطيلُ النظرَ إلى ثمارها،
أسطوانية دقيقة كنواة التمر وإن كانت تنتهي من أحد طرفيها بما يشبه
الطاقية. تُذكّرُني الثمار بشخصية من الرسوم المُتحرّكة لطفل يستلهم
شكلها في فيلم للصغار درج تميم على متابعته وهو بعد يتردد على
الحضانة في بودابست. أتذكّر الفيلم وأسترجع طفولة تميم. أبتسم
لما أتذكّره، أو لأنني ألمحُ طفلًا يركب درّاجته في طريق عودته
من المدرسة، أو أتابع جمهرةً من الصغار برفقة مدرِّس ومدرِّسة،
يفترشون العشب خارج السياج. يغنون أو يلعبون ويتصايحون. أسمع
أصواتَهم وضحكاتِهم. أقطع الخطوات الفاصلة بين السياج الخشبيّ
وباب البيت. أدخل. أضع العصا جانبًا وأجلس على مقعد جلدي
كبير أمامه مقعد آخر أمدّ عليه ساقيّ. لا يتعبني المشي، إن لم أبالغ
فيه. تقول الممرضة إنه يساعد على تنشيط الدورة الدموية مما يُسرّع



بشفاء الجرح. وعندما انتقلنا إلى فندق في الأسبوعين الأخيرين من
إقامتنا في أُرهوس، أتاح لي قرب الفندق من مركز المدينة، المشي
في شوارعها في صحبة مُريد وتميم، وأحيانا عزة، إن كنا في عطلة
نهاية الأسبوع. أستخدم عصا، وأقطع المشي بالجلوس في مقهى
أو على دكة من الدكك الخشبية في الشارع.

أحب القهوة بأنواعها: القهوةُ سريعةُ الذوبان التي لا أدري لماذا
غدا اسمُها «قهوة أمريكية»، أبدأ يومي بشربها.. والقهوةُ التُركيّة ذات
الطقوس. لا تعدها إلا في كنكة نحاسية. تسوّيها ببطء وعلى نار هادئة.
تصبّها بحرص إن كنت تريد الاحتفاظ بشيء من مترسباتها على
السطح، نسميه «وِش القهوة»، أو تفضّلها مغليّةً صافية، لا يطفو شيء
من البن المترسب في قاعها.. والقهوةُ العربية خمريةُ اللون، شقراءُ
رائقة يزيد شقارَها حبُّ الهال المطحون الذي يناصفها وتناصفه.

في طفولتي كنت أجلس بجوار «أم دُقْدُق» المرأة الكفيفة التي
تأتي لزيارة بيت جدي في حُلْوَان، تقيم فيه بضعة شهور لأنها وحيدة
(أرملة، ولها ابن واحد مسافر في مكان ما بعيد). تأتنس أم دُقْدُق بأهل
البيت فتمتد زيارتُها إلى إقامةٍ لعدة شهور، وربما سنة أو سنتين. غالبًا
ما كانت أم دُقْدُق مُتربّعة تجلس على حصيرة تفرشها أمام الباب
الخلفيّ للبيت، «لأن هنا طراوة». تدير بيمينها مطحنةً خشبيةً صغيرة،
تُلقِمُها حبّات القهوة المُحمّصَة. تطحنُها ثم تعبّئُها في وعاءٍ معدنيٍّ
ما. أو تصنع أكلمةً بسيطة من قصاصات ملفوفة في كرات متفاوتة
الأحجام، (بقايا أقمشة مُتخلّفة من حياكة أثواب مختلفة الألوان ونوع

النسيج). كانت أم دُقْدُق ترى بيديها على ما أظن، قادرة على تمييز أنواعِ القماش وألوانِهِ باللمس، وإدراج ما تريده منها في نسجيّاتها المتواضعة. في الصيف، أتربّع بجوارها، أتابع حركةَ يديها. تكرمني مرتين: تحكي لي حكاية، وتعطيني بعض حبّات البن. أُقَرْقِشُها ببهجة. أما في الشتاء فكانت المتعة أكثر تركيبًا: تجتمع العائلة حول ركوةٍ نحاسيةٍ كبيرة تغلي القهوة فيها. لا عجلة ولا استعجال. الركوة مُسْتَقِرَّة على فحمٍ يتوهّج على سطح منقل من نحاس، يُوَزِّع علينا الدفء وطيب القهوة، ينشره مستبقًا متعةَ المذاق بمتعةِ الرائحة.

ولذلك ربما، لم تكن القهوة الإيطالية المخلوطة بالحليب والمعروفة بالكابوتشينو قهوةً مُفَضَّلَةً، إلى ذلك اليوم الذي توقفنا فيه لأستريح من المشي في أُورهوس. دخلنا المقهى. جلست. أتى لي مُريد بفنجان كابوتشينو. كان الشاب زيّن سطحه الواسع بقلبٍ أبيض من الحليب أو القشدة المخفوقة. صرت أطلب كابوتشينو فيأتي لي الفتى أو الصبية بفنجان مزيّنٍ سطحُه، بما يشبه فرع شجرة زيتون بأوراقه المستطيلة، أو زهرة أو قلب. أبدأ بمتعةِ النظر. ثم أنثُرُ بعض حبيبات من السكر الأسمر على سطح الفنجان، كأنني أُمَهِّد للانتقال من النظر إلى المذاق. ثم رَشْفَةٌ أولى ببطء وعلى استحياء، كأنني أتجرأ على الرسمة الجميلة، ثم يغلبني المذاق مُخَلِّفًا لي ذاكرة قلبٍ أبيض مستقرٍّ على الوجه البُنّي الذي يملأ قدحًا كبيرًا وعميقًا.

تميم يُلِحُّ أن نتوقف في بودابست في طريق العودة. يقول: معنا تأشيرات تسمح بذلك، والرحلةُ إلى المجر رحلةٌ قصيرة غيرُ مُكَلِّفَة..



ثم إننا نقيم في فندق هنا وسنقيم في فندق هناك، ليلتين أو ثلاثًا لا أكثر. يسوق الحُجَج بلا كلل، ويُرهقني إصراري على عدم تلبية طلبه: لأنني يا تميم أتعكّز على عصا، ولأنني أحتاج لمن يُغَيِّر لي على ساقي كل يومين، هل نصل المجر فيكون أول ما نفعله البحث عن مستشفى يؤمِّن لنا ذلك؟ يُثقل عليّ ألا أحقق لتميم ما يريد، لأنني أعرف أنه بعد الجراحة وتعقيداتها وجزعه ومخاوفه يريد كأنما بعصا سحرية استعادة بعض مساحات طفولته السعيدة في المجر حيث كان يلتئم شمل العائلة التي تَوَزَّعت بقرار سياسيّ جعل دخول مُريد إلى مصر من الممنوعات، إلى أن وصل تميم إلى السنة النهائية في دراسته الثانوية. أعرف لماذا يُلِحُّ تميم فأشعر بمزيد من الضيق لأنني لاعتبارات عملية لا أحقق له مطلبه. هل يشفع لي أننا في طريق العودة كنت على كرسيّ مُتَحَرِّك في مطار كوبنهاجن ثم بعد الوصول، في مطار القاهرة؟

الفصل السادس

## الصـرخـة

نعم أجَّلتُ الحديث عن يوم الأربعاء الرابع عشر من أغسطس ٢٠١٣. لم أعرف بالأمر في حينه. أمضينا الصباح في المستشفى، وفي المساء حين عدنا إلى البيت، تناولنا العشاء. بعدها نُصحت بأن أنام مبكرًا: لأننا سنغادر البيت في تمام السادسة صباحًا، لكي نصل المستشفى في السابعة، وهو الموعد المحدد للاستعداد للجراحة.. لم يُشر أكمل أو عزة أو تميم أو مُرِيد إلى مجريات الأحداث في مصر، لأن الأخبار لم تصلهم، أو لأنهم أحجموا عن الحديث عنها أمامي.

في اليوم التالي، أُجريت لي الجراحة. تمت بسلام. ثم تعقّدت. دخلتُ في غيبوبة ثم خرجتُ منها وانتقلت من العناية المُرَكَّزة إلى غرفة بمبنى آخر. وحتى بعد مغادرة المستشفى في الثلاثين من أغسطس كان اطّلاعي على الشبكة عبر لوحي الإلكترونيّ غيرَ ميسور بسبب صعوبة القراءة وزغللة العينين، ولأن الأطباء كانوا أعطوني كمًّا

لا يستهان به من الأدوية المُسَكِّنَة، أتناولها عدة مرات يوميًّا. كنت شبه مُخَدَّرَة، أنام معظم الوقت. تكرارٌ مُقَزِّم لا يخلو من تعديلات لحكاية أهل الكهف، يناموُن داخله لا علم لهم بما يدور خارجه من أحداث جلل. مع الفارق بين الغياب سنوات والغياب أسابيع، والغياب في الكهف أو غيبوبة المرض وذيولها.

لاحقًا ستتسرب لي الأخبار تدريجيًّا وببطء. عرفتُ أن قوّاتَ الجيش والأمن فضّت اعتصام رابعة وميدان النهضة بالقوة، فتسببت في سقوط أعدادٍ كبيرة من القتلى والمصابين. عرفتُ باستقالة البرادعي اعتراضًا على قرار الفَضّ. وعرفتُ بأمر الأعداد الغفيرة من المعتقلين. ولكنني حتى عودتنا إلى القاهرة في الحادي عشر من أكتوبر، لم أكن رأيت أيًّا من التسجيلات الخاصة بالمذبحة، بل لا يتوافر لدي حتى كتابة هذه السطور، معرفة دقيقة بالأعداد التي تتفاوت في التصريحات بين المئات والآلاف.. تحدِّدُ مصلحة الطب الشرعي العددَ بـ ٧٢٦. وتشير بعض المصادر إلى ألف ومائتي شهيد. ويذهب البعضُ إلى أنهم تجاوزوا هذا الرقم. أيا كان العدد، فهي مجزرة كبيرة، وإن نفى البعضُ كونها كذلك أو عَمِلَ الإعلامُ المرئيّ والمسموع والمكتوب على تبريرها، أو طمس تفاصيلها.

ستُعلمني عزة بعد ستة أشهر، حين زارتنا في القاهرة في زيارة قصيرة لمصر، أنهم حرصوا هي وأكمل ومريد وتميم على إخفاء أمر المذبحة عني، يوم حدوثها، (اليوم السابق لإجراء الجراحة)، وطوال فترة وجودي في المستشفى. قالت عزة: بدا الأمر غريبًا أعني تزامن المذبحة وتوابعها مع وجودك في غرفة العمليات، ثم التعقيدات التي



تلت ونقلك إلى غرفة العناية المركزة وإدخالك في غيبوبة متعمدة، ووضعك على جهاز التنفس الصناعي.

وللأمانة، عليّ أن أُوضِّح يا أعزائي القراء، المنقسمين بين مؤيد ومعارض للإخوان وأنصارهم، أنني كنت تابعتُ تظاهر عشرات الآلاف من الجماعات الإسلامية أمام جامعة القاهرة، وفي الطريق الممتد بين بواباتها وتمثال نهضة مصر، وهو المكان الذي أُطلق عليه لاحقًا اسم ميدان النهضة.. استمعت لحديث المِنَصَّة الذي بدا لي مشوبًا بالعنصرية والطائفية، لا يمت بصلة لتصوري عن الثورة أو مفهومي للإسلام. وشعرت بالأمر نفسه وأنا أتابع كلام بعض القيادات السَلَفِيّة أو لاحقًا وأنا أنصت، لبعض ما قيل من على منصة اعتصام رابعة. أكرر على نفسي: فليكن! هم في النهاية يُعَبِّرون عن رأيهم وإن اختلفتُ معهم، ولكن الاستياء جدّ عليه غضبٌ عارم حين تحوّل الاختلاف إلى مواجهات دموية وإلى قتل داعية شيعي زورًا في إحدى القرى وسحله وترويع الأهالي الذين دعوه إلى بيتهم.

حين نزلت يوم الثلاثين من يونية كنت صادقةً أريد استفتاءً شعبيًّا على مرسي، لأنني مستاءةٌ من سياساته، و تصريحاته، ساخطةٌ من إغداقه أوسمة على قادة عسكريين كان الثوار يطالبون بإعدامهم لما سفكوه من دم. أسخر من مُغازلته الفِجّة للمؤسسة الأمنية المسئولة عن قتل الثوار وفقء عيونهم وملاحقتهم المتصلة. أنصتُ بمرارة إلى حديث الرئيس المُنتخب في زيارة له إلى مقر الأمن المركزي بالدرّاسة، يقول إن رجال الأمن كانوا في القلب من ثورة يناير. يقول إنهم «في العين والقلب»!

لست في مجال تعداد الأخطاء والخطايا، ولا كتابة مقالٍ سياسيّ في الموضوع يسترجع قائمة الأغلاط والكوارث أو تكرار خطابٍ يُشَيْطِن حُكْمَ الإخوان ويجرِّمهم على ما اقترفوه وما لم يقترفوه. ولكنني كما أسلفتُ في بداية الفقرة أردتُ أن أوَضِّح أنني نزلتُ إلى الشارع في الثلاثين من يونية بغية استكمال الثورة لأكتشف بعد أيام معدودة أن هذا النزول الجماعيّ سيكون أداةً لتمكين الفلول والمؤسستين المالكتين للقوة المسلّحة: أعني المؤسسة العسكرية والأمنية، تدعمهما وتتقدمهما المؤسسةُ الأكثرُ انتشارًا وتأثيرًا: أعني المؤسسة الإعلامية.. وكأننا نعيد الكَرَّة لنقع في ذات المأزق الذي وجدنا أنفسنا فيه يوم إعادة انتخابات الرئاسة للاختيار بين النظام والنظام. وخنق الثورة في الحالتين.

في انتخابات الإعادة، كنت تحاملتُ على نفسي وقلت كما قال كثير من أمثالي: نعصر ليمونة ونختار مرسي لرئاسة الجمهورية لأن السياسة في نهاية المطاف، هي فن الممكن، ومرسي أرحم من شفيق[٣]. ثم إنه لا يجوز ولا يصحّ، ويُريق ماءَ الوجه ويُخِلّ باحترامنا لأنفسنا ويُثقل ضميرَنا أن يُستشهَد المئات من أبنائنا لإسقاط نظام مبارك ثم نذهب إلى صناديق الاقتراع ونختار بدم بارد الممثل المُعْلَن لهذا النظام. وبعد شدٍّ وجذب في عقلي وقلبي، ذهبتُ إلى صندوق الاقتراع. وقفتُ في الصفِّ طويلاً أمام المدرسة المعيّنة حيث لجنتي الانتخابية إلى أن نبّهني أحدُهم أن لكبار السن امتيازَ

(٣) الفريق أحمد شفيق: آخر رئيس وزراء في عهد الرئيس المخلوع حسني مبارك، والمرشح للرئاسة في انتخابات ٢٠١٢.



الدخولِ مباشرةً. دخلت المدرسة. صعدت إلى الطابق الثاني. وقفتُ في الممرّ ضمن الصف المنتظر أمام اللجنة الفرعية.

دخلتُ وفي نيّتي انتخاب مرسي. ولكنني حين أمسكتُ الورقة ومِلْتُ عليها والقلم في يدي، وجدتُني أشطب على اسم شفيق وأشطب على اسم مرسي، وأكتب بخط كبير: المجد للشهداء. نعم يا سيدتي القارئة أبطلتُ صوتي، وقد ترين في ذلك خطأً. خرجتُ من المدرسة وأنا أشعر بقدر من الارتياح، أقول لنفسي: لم أختر العملَ السياسيّ بمعناه اليوميّ الدارج حيث المواءمات والتنازلات والحلول الوسط. أنا كاتبة وأستاذة جامعية ولا رصيدَ لي إلا ضميري واجتهادي وما يمليه عقلي عليّ... فليكن!

ولأن الأفراد من أمثالي ومن غير أمثالي يقعون في تناقضاتٍ غريبةٍ أو طريفة أو ربما مضحكة، رحتُ أتابعُ نتائجَ الانتخابات لحظةً بلحظة.. أجلسُ أمام التليفزيون، في يدي دفترٌ وقلمُ رصاص.. أُسَجِّل نتائج انتخابات الإعادة، لجنةً لجنة، ومحافظةً بعد محافظة.. أجمعُ وأطرحُ وأنتظرُ وأتمنى.. أي والله، هذا ما حدث! تمنيتُ فوز مرسي رغم إحجامي عن انتخابه، وفرحتُ بفوزِه وابتهجتُ بنزوله إلى التحرير ليُقدِّم ولاءه إلى جمهور الثورة الذي أتى به إلى الحكم.

باختصار كنت مثل «جيكا»[٤] الذي رقص وهو محمولٌ على الأكتاف فرحًا بفوز مرسي. ثم قتلته قوات الأمن التي وصفها مرسي

(٤) جابر صلاح جابر (١٩٩٥-٢٠١٢) المعروف بجيكا: شاب سقط برصاص الشرطة المصرية في نوفمبر ٢٠١٢ أثناء مشاركته في مظاهرة لإحياء الذكرى السنوية الأولى لمواجهات شارع محمد محمود (١٩ نوفمبر ٢٠١١).

بأنها في العين والقلب، وأشاد بها وبالوزير الذي عيّنه ليدير شئونها، ويأمر بقتل الثوّار!

لست في مجال الحديث عن حكم مرسي الذي بدأ ولايته بزيارة السعودية، ولا أردتُ الحديثَ عن حساب المكسب والخسارة، وعثراتِ الرئيسِ المُنتخب ولا خيباتِ الأمل المتلاحقةِ في أدائه، ولا حزني المركّب ونحن نهرول للحاق بجنازة الحسيني أبو ضيف المُصَوِّر الشاب الذي سقط شهيدًا أمام قصر الاتحادية في مواجهات بين معارضي الإخوان وأنصارهم. لحقنا بالموكب عند تقاطع شارع هدى شعراوي وطلعت حرب. سرنا باتجاه ميدان التحرير. قطعناه. واصلنا إلى مسجد عمر مكرم حيث توقّفت السيارةُ التي تحمل جثمانَ الشهيد. أنزل الشبابُ النعش. رافقه البعض إلى داخل المسجد لأداء صلاة الجنازة وبقي البعض الآخر موزعًا في مجرى الشارع وعلى الأرصفة إلى أن انتهت الصلاة وخرجوا به وأودعوه السيارة التي كانت تنتظر لحمله إلى صعيد مصر، مسقطِ رأسِهِ بالمعنيين. أجاهد في لجم دموعي، ولكنني حين تحرّكت السيارة انتحيت جانبًا من الرصيف وانتحبت. ثم مسحتُ دموعي ومشيتُ ببطء مع مُرِيد وتميم باتجاه ميدان التحرير. كان الميدان باردًا وشبه معتم يستجيب بطريقته لتلك الليلة الحزينة من ليالي ديسمبر. قطعنا الميدان وعدنا إلى البيت.



الفصل السابع

## عن السيارات الزرقاء مرة أخرى

قلت في الفصل السابق إنني لا أسعى لتكرار الخطاب الإعلامي السائد هذه الأيام، وهو خطاب يكاد ما فيه من أكاذيب يصل إلى حد المسخرة! ولكنني أردت أن أنقل بوضوح أن رأيي في سوء أداء الإخوان وتعثّر حكمهم القصير لا يُبرِّر فض اعتصام لهم بقتل المئات منهم، ولا يعطي مشروعيّة لشيطنتهم ولا ملاحقتِهم على طريقة ملاحقة الساحرات في أوروبا العصور الوسطى.

أمُرُّ على الصور سريعًا وأتساءل: ما الذي يبرر كل هذه الأكفان؟ كل هذه الدماء؟ هل هو الصراع على السلطة؟ نعم هو صراع دمويّ على السلطة. بين نقيضين؟ لا أظن. هل هو صراع خارج نطاق الثورة المُشْرِقة بمطالبها أم فيه جزء ملتبس منها؟! أتوقّف أمام الأسئلة.. أخشى إجابة تُبسِّط وتختزل أمرًا مُعقّدًا تتداخل خيوطُه وتتشابك، لأن جزءًا من الشعب، الأكثر فقرًا والذي شارك في ثورة

يناير وقدم الشهداء فيها كان مشاركًا في اعتصام رابعة وميدان النهضة وفي مظاهرات الأقاليم. ألم يكن السلفيون وقود «العباسية ٢»[٥]؟ ألا تقتضي الحكمةُ الفصلَ بين هذا الوقود البشريّ وقيادات لا تملك بحكم تكوينها التاريخيّ من الذكاء والتجرّد ما يؤهلها للقيادة؟ أيًا كانت التفاصيل أو الأجوبة، الدقيق منها والمُحتمل، تبقى المجزرةُ في عين الشمس. لن أتـوقف عند تفاصيلها لأنكم على ما أُرَجِّح تعرفونها. أتوقف عند حادثة واحدة دالة، حادثة نموذج، وإن أجّلت الحديث عنها قليلًا لأشير إلى واقعتين أسبق ترفدان دلالتها.

حاولت طوال ليلة الأمس أن أبحث على الشبكة الإلكترونية عن خبر المُجَنَّدِين الذين اختنقوا في سيارة ترحيلات تنقلهم من مرسى مطروح إلى القاهرة. شباب محشورون في صندوقٍ حديديّ مغلق عليهم في سيارة أمن تقطع بهم طريقًا صحراويًا. مات بعضُهم عطشًا ومن شدة الحرارة في الصندوق المغلق عليهم. قرأت عن الواقعة فور حدوثها ولكنني فشلت في استرجاع تفاصيلها وتاريخ وقوعها.

---

(٥) أحداث العباسية ٢: مظاهرة واعتصام أمام وزراة الدفاع المصرية في حي العباسية بالقاهرة يوم ٢ مايو ٢٠١٢ تطالب المجلس العسكري الحاكم آنذاك بتسليم السلطة للمدنيين. وقد قامت قوات الجيش والشرطة بفضها ما أدى إلى استشهاد ١١ متظاهرا وسقوط عشرات الجرحى، وسميت بأحداث العباسية ٢ أو أحداث العباسية الثانية تمييزا لها عن أحداث العباسية الأولى وهي فض مظاهرة سابقة متجهة إلى مقر وزارة الدفاع في ٢٣ يوليو ٢٠١١ سقط فيها شهيد واحد من المتظاهرين وجرح العشرات.



أما خبر قطار البدرشين[٦] الذي راح فيه شبابٌ مجنّدون قادمون من الصعيد، أدلى من أفلت من الموت منهم بشهادات عن أسلوب التعامل معهم طوال الرحلة، فلم أكن بحاجة للبحث عنه، لأنني تابعته لحظة بلحظة، واستمعت في حينه إلى شهادات الناجين، فبقي صوتُهم كالندبةِ أو الوشمِ أو الصفعةِ التي تنبّهُك فجأة إلى واقع يفوق خيالك، إذ تكاد لا تستوعب مدى الإذلال والقهر الذي يتعرّض له شباب المجنّدين على طريق استعبادهم وتطويعهم إلى أدوات في المؤسسة القمعية.

قبل المُضيّ في الحديث، أريد أن أوضّح لكم دلالةَ عنوانِ هذا الفصل الذي يشير لسيارات الأمن الزرقاء (طلوا بعضها في السنوات الأخيرة بلون زيتونيّ داكن). استخدمت عبارة «ثانيًا» لأنه سبق لي تناول هذه السيارات في روايتي «فرج» التي صدرت قبل عدة سنوات. أسميت الفصل الخامس والعشرين من الرواية «السيارات الزرقاء». وعندما تُرجمت الرواية إلى الإنجليزية جرت مراسلات كثيرة بيني وبين الناشر الذي اقترح تغيير العنوان، لأن القارئ الناطق بالإنجليزية في دعوى الناشر، لن يفهم معنى كلمة «فَرَج»، ولن ينتبه إلى أنها اسمُ علم. فاقترحتُ أن يكون العنوان«Blue Lorries» (السيارات الزرقاء)، فوافقتني المترجمة ثم الناشر على هذا الاقتراح.

---

(٦) حادث اصطدام قطار ركاب يحمل مجندين مصريين، متجه من أسيوط إلى القاهرة، بقطار بضائع عند مدينة البدرشين، في ١٤ يناير ٢٠١٣ أسفر عن مقتل ١٩ شخصا وجرح أكثر من ١٠٠ آخرين.

وتعلمون لو كنتم من سكان مدن المحروسة، مصر أم الدنيا والعجائب والمضحكات المبكية، أن هذه السيارات التابعة لوزارة الداخلية هي سيارات الترحيلات التي ينقلون فيها المقبوض عليهم. يُمَيِّز كلًّا منها صندوقٌ حديديّ كبير له باب خلفيّ وأربع طاقات صغيرة، اثنتان على كل جانب، يُفترض أنها نوافذ، مغلقة بشِباكٍ غليظة.

أما الواقعة التي أريد التوقّف عندها فقد حدثت يوم الأحد الثامن عشر من أغسطس وأنا في غرفة العناية المركزة لا أعي من أمري شيئًا، في بلد بعيد اسمه الدانمارك. يقول الشهود إن السيارة تحرّكت بهم من أمام قسم مصر الجديدة، في السادسة صباحًا. كانوا ٤٨ من الرجال الذين تم احتجازهم بعد فض اعتصام رابعة. لك أن تتخيل يا سيدي القارئ وضعهم وهم مقيدو الأيدي داخل هذا الصندوق الحديديّ الذي يتسع تبعًا لجهات التحقيق لحوالي ٢٤ أو ٢٥ شخصًا. طولُ الصندوق ثلاثة أمتار و ٧٠ سم. عرضُهُ متران. ارتفاعُهُ أقلُّ قليلًا من مترين. حشروا فيه ثمانية وأربعين شخصًا، كل اثنين أو ثلاثة منهم مقيدون بعضهم إلى بعض. سارت بهم السيارة بسرعة مُتَعَمَّدَة، يوقفها السائق فجأة أو يُغَيِّر السرعة فيرتطم المعتقلون المقيَّدةُ أيديهم بأيدي زملائهم بسقف الصندوق أو بجانبيه أو بأرضيته.. بقوا في الصندوق - تسع ساعات، من السادسة صباحًا إلى الثالثة بعد الظهر. وأخيرًا توقفت السيارة مع سيارات أخرى في فناء سجن «أبو زعبل». كان عددٌ كبيرٌ من راكبي السيارة سقط مغشيًّا عليه أو ربما فارق الحياة من شدة الحرارة والعطش وتكرار الارتطام.



هل أُذَكِّرك يا عزيزي القارئ بالقاهرة في شهر أغسطس، وأنت تمشي في الشارع أو تركب أتوبيس أو تقف في ظل شجرة؟ فما بالك بالوجود في صندوقٍ حديديٍّ مغلق إلا من تلك الطاقات الصغيرة؟ يستغيث المعتقلون. يدقّون على جدران الصندوق. يصيحون: نحن نموت. البعض منا مات. يجيئهم الصوت من خارج السيارة حاسمًا ومُسْتَخِفًّا: موتوا!! ثم فجأة فتح جندي ما البابَ الخلفيَّ للصندوق، واربه. ألقى داخله قنبلة مسيلة للدموع. وأعاد إغلاق الباب! من لم يكن مات من شدة الحرارة والعطش والارتطام المتكرر مات مختنقًا بالغاز!!

استشهد في الواقعة ٣٧ معتقلًا، في قول بعض المصادر، و٣٨ تبعًا لمصادر أخرى. أما من قُدِّرَت لهم الحياة فقدموا شهادتهم. ويمكن لك يا عزيزي القارئ الرجوع إلى الشبكة الإلكترونية لقراءة هذه الشهادات أو الاستماع إليها، فهي منشورة على اليوتيوب.

في الرواية الشهيرة لغسان كنفاني، رواية «رجال في الشمس» التي كتبها وهو في السابعة والعشرين من عمره (أي قبل تسع سنوات من استشهاده) يروي الكاتب الفلسطيني حكايةَ ثلاثِ شخصيات تسعى للخلاص من واقعها البائس بمحاولة الوصول إلى الكويت تهريبًا. يقطع بهم المهرِّب الصحراء بين العراق وحدود الكويت، في سيارة نقل لها خزّان، يخفيهم فيه كلما توقف في نقطة حدود. في المرة الأولى وهم يغادرون العراق يبقون في الخزان ست دقائق، تكاد تقتلهم. عند دخول الكويت يُعطِّل موظف الحدود السائق فيستغرق

الانتظار أكثر من الدقائق المتوقّعة. وما إن يختم الموظف الجواز للسائق حتى يطير بسيارته لأقرب نقطة بعيدة عن الأعين، ثم يتوقف ويقفز إلى أعلى السيارة ليفتح باب الخزان ويُخرج الرجال الثلاثة.

لا يجد إلا ثلاثَ جثثٍ مختنقة.

يواصل رحلته ويقرر التخلص منها بإلقائها في مقلب قمامة على أطراف المدينة، ويفعل. يكاد يركب سيارته ليمضي ثم يتوقف «لأن فكرة كانت تُدوِّي في رأسه تكاد تُفجِّره. حدق في العتمة، وسّع حدقتيه. انزلقت الفكرة من رأسه إلى لسانه:

لماذا لم يدقّوا جدران الخزان؟

وفجأة بدأت الصحراء كلها تردد الصدى:

لماذا لم تدقّوا جدران الخزان؟ لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟!».

كانت هذه الرواية هي مداخلة غسان كنفاني في الواقع الفلسطيني في مطلع الستينيات.. مداخلةٌ/ مجاز تحمل إرهاصًا بالثورة التي انطلقت بعد نشر الرواية بعامين.. تستبدل بالصمت والبحث عن خلاص فرديّ ينتهي بموت محقق، رفعَ الصوت (الدق على جدران الخزان)، باختصار: المواجهة..

لا مجال هنا لمزيدٍ من التفاصيل وإن كنتِ يا سيدتي القارئة تساءلين عن ضرورة هذه الإشارة إلى نص روائيّ كتبه شاب موهوب وهو في السابعة والعشرين من عمره، تعليقًا على الوضع الفلسطيني، أجبك أن إدراجي لهذا الموضوع وإن بشكل مختصر لم يكن من باب



الاستطراد أو التداعي بسبب بعض عناصر التشابه بين الواقعتين، بل لأن السياق المختلف يجعل حالتنا أكثر وطأة ومأساوية! فقتل المعتقلين السياسيين في صندوق سيارة الأمن بإلقاء الغاز عليهم جاء بعد ثورة على الممارسات القمعية، أودت بالقيادات الأمنية وقيادات الدولة التي عينتها.. ثم إن الواقعة في الرواية تناولت فلسطينيين احتُلَّت بلادهم فراحوا يسعون إلى بلد آخر بحثًا عن الخلاص.. أما واقعة سيارة الترحيلات في المحروسة، أم الدنيا والآخرة، فذهب ضحيتها مواطنون مصريون، لأن المعارضة السياسية في المحروسة تحوِّلُك بين ليلة وضحاها إلى غريبٍ على أرضك، مطاردٍ فيها، وتعلِّمُك أن مترتبات الحكم المستبدّ لا تختلف كثيرًا عن مترتبات الاحتلال والغزو الأجنبي. هل تفهمينني يا سيدتي أم أستفيض في الشرح؟

الفصل الثامن

## يوميات موت مُعلَن

مساء يوم الخميس الثامن عشر من نوفمبر أرسل لنا الدكتور هاني الحسيني زميلنا في مجموعة استقلال الجامعة والأستاذ في كلية العلوم بجامعة القاهرة، رسالة على البريد الإلكتروني للمجموعة ضمَّنها شهادته عما رآه بعد ظهر يوم الخميس (١٨ نوفمبر ٢٠١٣) في حرم جامعة القاهرة، وفي كلية الهندسة. وهذا نص الرسالة:

حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر اتصلت بي إحدى الزميلات من كلية الآداب وقالت إن الشرطة تطلق الغاز داخل الجامعة وفي ساحة كلية الآداب (خلف المبنى الرئيس للكلية). بالمصادفة كانت معي د. ليلى سويف فتوجهنا معًا إلى المدخل الرئيس للجامعة، حيث كانت هناك مظاهرة طلابية داخل البوابة.

**ما رأيته بنفسي**

عند وصولنا قابلنا نائب مدير أمن الجامعة الذي كان ثائرًا بسبب تصرفات الشرطة وقال لي إنه يشهد بأن الطلاب لم يصدر

عنهم تجاوز أثناء مسيرتهم داخل الجامعة، وأنه لا يعلم ما حدث خارج الجامعة لكنه لا يبرر ضرب الغاز داخل الحرم الجامعي.

تحدثت مع بعض الطلاب وفهمت منهم أنهم خرجوا للتظاهر أمام البوابة الرئيسة للجامعة فقامت الشرطة بضربهم بقنابل الغاز، وعندما دخلوا إلى داخل الجامعة استمر ضربهم بالغاز داخل الجامعة!

حاولت إقناع الطلاب بعدم الخروج لمواجهة الشرطة، لكنهم كانوا في درجة عالية من الاستثارة وكان من الصعب مجرد التحدث معهم.

بعد قليل عاود الطلاب الخروج للتظاهر أمام الجامعة وأعادت الشرطة الهجوم عليهم بقنابل الغاز فانسحب الطلاب لداخل الجامعة وطاردتهم الشرطة بقنابل الغاز داخل الجامعة. شاهدت ذلك بنفسي.

تكرر هذا الأمر مرة أخرى، لكن في تلك المرة سمعنا أصواتًا تختلف عن أصوات إطلاق قنابل الغاز وتوقع البعض أن تكون طلقات خرطوش.

من الواضح أنه كانت هناك مظاهرة أخرى في كلية الهندسة على الناحية المقابلة من الشارع وأنها عوملت بنفس الأسلوب. ويبدو أن ضرب الخرطوش بدأ ضد مظاهرة كلية الهندسة.

في المرة الثالثة رأيت بنفسي أفراد شرطة يقتربون من الباب ويصوبون بنادقهم إلى داخل الجامعة ويطلقون طلقات (غالبًا طلقات خرطوش).



**الاتصالات**

خلال كل تلك الفترة كنت أحاول الاتصال بالدكتور جابر نصار، رئيس الجامعة الذي كان تليفونه مغلقًا ولم يكن موجودًا في الجامعة. وحسب تليفوني كانت أول محاولة الساعة الثالثة وثلاث دقائق وآخر محاولة فاشلة الساعة الرابعة و أربع دقائق. في الساعة الرابعة وخمس وعشرين دقيقة حاولت مرة أخرى فرد علي د. جابر ولم يكن على علم بما يدور في الجامعة، وأبلغته بأن الشرطة تطلق الغاز والخرطوش على الطلاب داخل الحرم الجامعي، فأجابني بأنه سيتصل فورًا بمدير أمن الجيزة.

قبل ذلك (الساعة الرابعة وخمس دقائق حيث كنت قد يئست من الاتصال بالدكتور جابر) اتصلت بالدكتور حسام عيسى، وطلبت منه بذل المساعي لوقف تصرفات الشرطة، فأجابني بأنه سيتصل فورًا بوزير الداخلية.

**الشك في مقتل الطالب مصطفى عصام - كلية الحقوق**

في تلك الأثناء صعدت إلى مكتبي لعدة دقائق ثم مررت على د. ليلى سويف فوجدت عندها طالبًا في حالة انهيار ومعه بعض زملائه وكان الطالب يقول إن زميله قد قتل أمام عينيه! لكن بإعادة سؤاله عما حدث فهمنا أنه رأى زميله يصاب بطلقة في وجهه في منطقة العين، وسقط وقام أفراد الشرطة بجره وأخذه إلى سيارة الشرطة. الطالب الذي أصيب (أو قتل) من كلية الحقوق واسمه مصطفى عصام.

عدت إلى مدخل الجامعة، وفي الطريق مررت على سيارات الإسعاف التي كانت متجمعة أمام قسم الكيمياء وسألت المسعفين عن حالات الإصابة بالخرطوش فأكدوا لي وجود خمسة مصابين بالخرطوش على الأقل، لكنهم قالوا إنها لم يكن بينها إصابات خطيرة أو قاتلة.

**قتل الطالب محمد رضا - كلية الهندسة**

أمام القبة وجدت مجموعة من الطلاب يحكون عن مقتل طالب من كلية الهندسة اسمه محمد رضا.. القصة التي رواها أحدهم (والتي ثبت بعد ذلك صحتها) أن الطالب أصيب بطلقة كما كان يعاني من الغاز، فأخذه أحد زملائه في سيارته ليتوجه به إلى مستشفى الطلبة، بعد خروجهم من كلية الهندسة وبجوار سور حديقة الحيوان استوقفتهم الشرطة وألقت القبض على السائق (أفرجوا عنه فيما بعد) وتركت الطالب المصاب في السيارة.. وصل إليه أحد المسعفين بعد قليل فوجده قد فارق الحياة.

ما يرويه الطلاب أن محمد رضا أصيب داخل الكلية، وما يدعيه الأمن أنه قتل خارجها. لكن هل هذه هي القضية؟

بعد فترة (حوالي الساعة الخامسة والربع) اتصل بنا أحد الطلاب وقال إن السيارة التي بها جثمان الطالب محمد رضا ما زالت موجودة في مكانها أمام سور حديقة الحيوان. ذهبت أنا ود. ليلى سويف ومعنا عدد من الطلاب ووجدنا تجمعًا من الشباب حول السيارة، ووالد القتيل واقف بجوارها في صدمة. وبعد



أخذ ورد اقتنع الوالد المكلوم باستدعاء الإسعاف لنقل الجثمان للمشرحة حتى يتم إثبات سبب الوفاة.

**إصابة الطالب عصام جمال الدين (أو جمال عصام الدين... للأسف لست متأكدًا من الاسم): - كلية الهندسة أيضًا**

أثناء وجودنا أمام القبة بين الرابعة والنصف والخامسة رأيت أحد أفراد الأمن مصابًا بالخرطوش في يده، وقال لي إننا يمكن أن نذهب لكلية الهندسة للتأكد من إصابات الطلاب هناك أو مقتلهم (لم نكن قد تأكدنا بعد من وفاة الطالب محمد رضا). في كلية الهندسة تحدثنا مع بعض أفراد الأمن فذكروا لنا أن طالبًا اسمه عصام جمال الدين أصيب بطلقة اخترقت جانبه وأنه نقل إلى قصر العيني. اتصلت بالزميلة الدكتورة عبير عبد الحافظ وطلبت منها متابعة الموضوع مع الزملاء في كلية الطب.. وبالفعل اتصلت بي أ.د. مجد قطب حوالي الساعة السادسة وقالت لي إن الطالب مصاب فعلًا بطلق ناري وربما اثنين وإنه في غرفة الجراحة.. ثم أعادت الاتصال بعد ذلك وأفادتني بأن حالته غالبًا مستقرة.

**الشك في إصابة (أو مقتل) طالب آخر من كلية الهندسة اسمه إسماعيل**

روى الطلاب أن طالبًا بالفرقة الثانية قسم طيران اسمه إسماعيل قد قتل، لكن بعضهم تدخل وقال إنه لم يقتل وإنما تم نقله لقصر العيني مصابًا. الزملاء في قصر العيني لم يجدوا مصابًا بهذا الاسم، وجاري البحث عنه في الأقسام والمستشفيات.

**ملخص**

الشرطة لم تدخل الجامعة لكنها هاجمت الطلاب والعاملين بالخرطوش والغاز (وربما الرصاص الحي) داخل الحرم الجامعي.

أفراد الأمن الجامعي تصرف بمنتهى الالتزام والمروءة... فلهم الشكر.

**مطلب**

لابد من الاعتقال الفوري للسفاح محمد إبراهيم [وزير الداخلية] وأعوانه من زبانية الداخلية وتقديمهم للمحاكمة على وجه السرعة... ولا مانع من إعدامهم دون محاكمة!

بينما كانت الدكتورة ليلى سويف تصاحب الدكتور هاني الحسيني إلى كلية الهندسة، كانت قوات الأمن تستعد لاقتحام بيت ابنها علاء عبد الفتاح والقبض عليه. والغريب أن الأمن كان قرر أن يقوم باقتحام بيته للتكدير والإرهاب أو الانتقام، لأن علاء كان أعلن حين علم بأمر القبض عليه، أنه سيسلِّم نفسه يوم السبت. ولكن الأمن قرر مهاجمة بيته. اقتحموا البيت. قبضوا عليه. ضربوه وتعدوا على زوجته. استولوا على الكمبيوترات والهواتف المحمولة. أخذوه وذهبوا. هل هو استعراض للقوة؟ أم أن البحث عن سببٍ ضربٌ من العبث لأن المنطق كما كتبت منى سيف أخت علاء على صفحتها على الفيس بوك في اليوم الأخير من العام: «يرتدي الآن طاسة فوق رأسه ويقف في شرفة منزله يزغرد بحماسة وهو يلقي بأكياس مياه فوق المارة». نعم يا سيدي القارئ: شر البليَّة ما يضحك.



أوردت عاليه نص الرسالة التي أرسلها لنا الدكتور هاني الحسيني عما حدث في جامعة القاهرة يوم الخميس الثامن عشر من نوفمبر. وقد لا يعرف القارئ الذي يسكن خارج المحروسة ولا يتابع تفاصيل ما يحدث فيها أن الأستاذ الجامعي الذي طالب بالاعتقال الفوريّ لوزير الداخلية وتقديمه هو وأعوانه للمحاكمة ثم استدرك: «ولا مانع من إعدامهم دون محاكمة»، هو أستاذ هادئ يعرف كل من تعامل معه أنه متوازنٌ في مواقفه لا يميل للتشدّد.. يكتب هاني مطلبه بالبُنط الثقيل ويضع تحته خطًّا، فيكشف التأكيدُ المُزْدَوَج عن سخطٍ وضغطٍ عصبي في حدِّهِما الأقصى.

أترك للقراء أن يتخيّلوا وضع الدكتور هاني وهو يجلس في نهاية ذلك اليوم ليكتب شهادته إلى زملائه وقد رأى من الطلاب من فقد حياتَه ومن سال دمُه ومن سقط مغشيًّا عليه من أثر الاختناق. وشاهد حرم الجامعة الأم يغطّيه الغازُ والدخان ويحاصره رجال الأمن ويحوِّلونه إلى ساحة معركة حربية.

كما أترك للقارئ أن يتخيّل وضع الأساتذة والطلاب والعاملين في الجامعة وهم يواجهون مشاهد مماثلة بعضها أشد وطأة في جامعة الأزهر وجامعة عين شمس وجامعة المنصورة على سبيل المثال لا الحصر، حتى صاروا يحصلون على جرعة منتظمة من الغاز، يوميًّا تقريبًا.

أحيانًا تنقل عدساتُ المصورين مشاهد يغطّيها الدخان ورجال أمن يتعقّبون شبابًا صغارَ السِّن، والشباب يواجهونهم بإلقاء الحجارة فتتصور للوهلة الأولى أنك تتابع فيلمًا وثائقيًّا عن المواجهات بين

الشباب الفلسطينيين والقوّات الإسرائيلية في الانتفاضة الأولى أو الثانية. ثم تنبهك قبة قاعة الاحتفالات الكبرى، والنصب التذكاري لعبد الحكم الجراحي والبوابة الأليفة العالية أن الصورة لجامعة القاهرة. وهناك مشاهد لا تنقلها آلات التصوير ولا أي من القنوات التلفزيونية. تحتاج أن تكون حاضرًا في المكان، فتراها رأيَ العين.

خذ مثلا مشهد الكوبري العلوي الذي يربط بين حرم جامعة عين شمس حيث كليات الآداب والحقوق والعلوم، وكليتي التجارة والألسن في الجانب الآخر من شارع الخليفة المأمون. على الكوبري متاريس من أكياس الرمل، لأننا في حرب يا عزيزي القارئ، وخلف المتاريس يقف رجال الأمن، يُشرعون بنادقهم في اتجاه الجامعة. هل أنصحك لو كنت هناك، أن تحفظ المشهد جيدًا فمن الأرجح أنك ستورثه يومًا ما لأولادك أو أحفادك. أتراجع، احفظه ولكن لا تروِه، لأن روايته تحمل في أذيالها أسئلة وجودية مربكة. هل يمكن تفسير الصمت والتواطؤ مع كل هذا العنف، بمجرد موقف سياسي؟ أم أن الخلل يمس قوانين الطبيعة وغرائز المخلوقات لحفظ البقاء؟ قالت صديقتي: الثدييات تضحي بنفسها من أجل صغارها، ونحن نأكل صغارنا. كيف؟!



## الفصل التاسع

## عن الزمن والمرآة

أعتقد أنه من المنطقيّ اعتبار المِرآة مقياسًا من المقاييس الدقيقة للزمن. وماذا عن الصور؟ ألا تقوم بالدورِ نفسِه؟ ربما، ولكنَّ في المِرآة فوريةً لا تتطلب منا مقارنة هذه الصورة بتلك، أو البحث عن صور قديمة احتفظنا بها في موضعٍ ما ثم نسينا أين، فنروح نُقلِّب في أضابير الذاكرة لعلنا نهتدي إلى مكانها، وقد يطول البحث فينفد صبرُنا فنبرطم: مش مُهِم!

تعكس لنا المرآةُ صورتَنا فنكتشف في اللحظة نفسِها التي نتطلّع فيها إلى الوجه أو الجسم أننا زدنا كذا ونقصنا كذا وجدّ علينا كذا، لأن النظر في المرآة يستحضر السابق من صورنا المُخزَّنة في الذاكرة. باختصار تتزامن الصورُ وتتلازم بما يتيح المقارنةَ بينها تلقائيًا وفي لمحةِ عين.

اسمحي لي يا سيدتي القارئة التي أعرف أنها على دراية بهذه الأمور، (لأن المِرآة كما لا يخفى عليك، لها علاقة أخصّ بالنساء، فهن أكثر استخدامًا لها، تربطهن بها أُلفةٌ وصِلةٌ لا تخلو من تعقيدات وتشابكات هي من سمات العلاقات الوثيقة ذات التاريخ)، اسمحي لي أن أفاجئك بعد كتابة الفقرات السابقة التي بدأتها بعبارة: «أعتقد أن..». بتغيير هذه العبارة إلى «يبدو لي...». لأنني قررت مراجعة الكلام، ثم فضّلت سحب وصفي للمِرآة بأنها مقياسٌ دقيقٌ للزمن. فهي مقياس، وإن لم يكن الأكثر دقة ولا الأهم. ثم إنه من الأحكم ما دمتُ أتناولُ مقاطعَ من سيرتي الذاتية يتصدَّرُ فيها الحديثُ عن تجربتي، ألَّا أعطي المِرآة أهمية لم تكن لها في حياتي.

في طفولتي وصباي لم تكن المرآة تشغلني لأنني كنت أركض هنا وهناك، أركبُ الدرّاجة. ألعب مع إخوتي وأبناء الجيران وبناتهم. أثرثر وأشاكس وأعاند. وأنشغلُ على طريقةِ الفئران بقرض الجبن وأوراق الكتب. وأحرص على الاستماع يوميًا إلى المُسَلْسَلات الإذاعية في الخامسة والربع مساءً (أنتظر نشرةَ أخبارِ الخامسة لا لأنني أريد سماعَ الأخبار بل لأن المُسَلْسَل الذي أتابعه يبدأ ما أن تنتهي النشرة).. وفي المساء، أستمع إلى حلقات «ألف ليلة» التي يستهلّها صوت زوزو نبيل وهي تقول: «بلغني أيها الملك السعيد ذو الرأي الرشيد» يتلوه إعدادٌ تمثيلي لليلة من الليالي تنتهي بعبارة «وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح»، ثم صياح الديك فالموسيقى التصويرية..



المدرسةُ نهارًا واللعب مساءً وبينهما حيزٌ أحشره هنا أو هناك لحفظ تصاريف الأفعال الفرنسية والنصوص الشعرية المُقرَّرة، وكتابةِ واجباتٍ لا تنتهي تُخلِّف بقعًا من الحبر الأزرق على أعلى سبّابة يدي اليمنى وعلى الوسطى التي زاد عليها نتوءٌ صغيرٌ مُتخشّب من أثر ضغط القلم عليها.

أما في سنواتِ الكهولةِ وما بعدها، وفي أعقابِ تدخّلاتٍ جراحية متعدّدة، كانت نظرة خاطفة إلى المرآة تفي بالغرض.. تصفيف شعري أو ضبط هندامي أو تعديله بسرعة ودون طول تمعّن؛ لأن الصورة التي تردُّها لي المرآة لا تثير ارتياحي لاختلافها عن الصورة المستقِرّة في وجداني. أتجاهل شهادة المِرآة وأمضي.

إن لم تكن المِرآة فما هو المقياس إذن؟!

اصبري عليّ قليلًا يا سيدتي القارئة فالكلام يتشكّلُ ببطء، لأنني أستكشفُ الفكرةَ التي في رأسي، أشقُّ طريقي إليها بما لا يخلو من صعوبة.. يبدو لي أن المقياس يكمن في تلك اليايات الغريبة التي تسكن الرُكب فتحوِّل الصغيرَ إلى كبير، والبذرةَ إلى نبتة والشتلةَ إلى شجرة... إلخ.

يوم التاسع من ديسمبر ٢٠١٣، كتبت منى سيف على صفحتها في موقع الفيسبوك، تحت عنوان «زرنا علاء. طاقة حب وبهجة عجيبة»:

«أخذنا معانا تورتة وبلالين ورحنا أنا وماما وسناء ومنال وخالد. منال -القادرة- علقت زينة على الحيطة فوقينا في مكان الزيارة.

وزعنا بلالين على الأطفال اللي في الزيارة وغنينا لخالد وطفينا الشمع وكل اللي كانوا في الزيارة شاركونا الاحتفال العجيب سنتين على ميلاد خالد..

سجونكم ما بتخوفناش!

ولو ظلمكم بيوجع، بييجي يوم بنفتكر كل تنتوفة حلوة في الحلم اللي مخلّينا مكمّلين ومصرّين نهزم كابوسكم..

وبنفتكر ضحكة كل اللي فارقونا وعندنا السلاح السري سناء..

حقيقي حقيقي بكل مدرعاتكم وسجونكم ودباباتكم ومشارحكم احنا أقوى منكم!».

هذا نص ما كتبته منى، وكانت تنقل لأصحابها خبر زيارتها هي وأمها وأختها وزوجة أخيها لشقيقها علاء المسجون بسبب نشاطه السياسي. كان معهن خالد الذي وُلد قبل عامين وأبوه معتقل في مرة سابقة. كان علاء عبد الفتاح في محبسه، وكانت صوره مرسومة بالجرافيتي على الجدران في الشوارع والميادين، ومُستنسخة فيما لا حصر له من مواقع التواصل الاجتماعي.

تحكي منى أنهن حوّلن الزيارة إلى احتفال بالعيد الثاني لولادة خالد. وحوّلن قاعة كالحة في السجن إلى عيد مكتمل بالبالونات والصغار والتورتة والشمع والغناء.

ما علاقة هذا الكلام يا ست رضوى بالمُقدِّمة التي أوردتِها عن الزمن؟



علاقةٌ وثيقةٌ وواضحة.. لأنني وأنا أقرأ ما كتبته مُنى وأتأمل هذا الشكل البهيّ البسيط من أشكال مواصلة الحياة والثورة، كنت أسترجع زمنًا يسبق ولادة علاء ومنى وسناء. بل زمنًا أسبق كانت أمهم ليلى سويف الأستاذة حاليا في قسم الرياضة البحتة بكلية العلوم في جامعة القاهرة، تلميذة في المدرسة ترتدي جوارب بيضاء وزوج أحذية له رباط على طريقة أطفال المدارس. وكانت كما حكت لي لاحقًا مُغْرَمَةً بحل مسائل الرياضيات فتستغرق فيها. تطلب منها أمها الدكتورة فاطمة موسى أن تكفَّ عن ذلك لتدرس مواد أخرى أو تقرأ في موضوعات مغايرة. تختبئ ليلى تحت السرير وتواصل شَغَفَها بالرياضيات وحل مسائلها. ورث عنها علاء هذا الشغف بالقراءة وإن لم يكن في المجال نفسه.

تحكي لي ليلى كيف ضاع علاء ذات يوم في المطار. ذهبوا للاستقبال أو التوديع، ثم فجأة لم يجدوا علاء. أين ذهب الولد؟ راحوا يبحثون عنه. توزّعوا في مجموعات للسؤال عنه. أخيرًا وجدوه. كان مُتربعًا خلف حاملٍ دوّار للكتب، مأخوذًا بقراءة كتاب ما، من كتب الأطفال على الأرجح. لا بد أن أسأل ليلى هل كان سيف أبو علاء معتقلًا يوم واقعة المطار هذه؟ هل كانت منى وُلدت؟ لا أعرف..

ولكنني أعرف أن ليلى التي ذهبت مع بنتيها وزوجة ابنها وحفيدها خالد لزيارة ابنها في السجن، كانت قبل أكثر من ربع قرن تأخذ علاء ومنى إلى جامعة القاهرة لكي يلتقيا بأبيهما، وكان مسجونا سياسيا قرر أن يدرس الحقوق في فترة سجنه فيضيف القانون إلى تخصصه

السابق وهو الاقتصاد والعلوم السياسية. كان علاء في الخامسة أو الرابعة من عمره، أما منى فكانت رضيعة في مهد له عجل تجره أمها حين تأخذها إلى الجامعة ليراها أبوها ويرى علاء وهو في طريقه إلى لجنة الامتحان ثم وهو يغادرها بعد الامتحان.

أعود إلى فاطمة موسى والدة ليلى وجدة علاء ومنى وسناء.

سأبدأ بلقائنا الأول، قبل خمسين عامًا. لم يكن اللقاء في قاعة الدرس بل في مركز ثقافيٍّ ما قصدناه لحضورِ عرضٍ مسرحيّ. همست زميلةٌ تجلس بجواري: هذه هي فاطمة موسى. تطلّعتُ: كان يتبعها ثلاثة من الصغار: صبيّة وطفلان. وجهُها، ثوبُها، مشيتُها، أعني طريقة دَبّ قدميها على الأرض، والصغارُ في ذيلها، رسالةٌ مكتملة.

انكسر النموذجُ الجاهز لأستاذة جامعية، أستاذة متخصصة في اللغة الإنجليزية، اللغةِ التي يسعى الطلاب لإتقانها لترتفع بهم إلى منّصة أعلى وأبعد، حتى وهم يسيرون بين الخلق في الشوارع. تطلعتُ: بدت أقرب لجارة أليفة أو عمة طيّبة.

لاحقًا ستدرِّس لي.. وسوف تدهشني معارفُها وخبراتُها وأسفارُها، وامتزاجُ تلميذةٍ أبديةٍ فيها بالأستاذة، وتداخلُ حِسِّها العمليّ بمثاليةٍ ما لا تخلو من براءة، وقدرتُها على إنجازِ أشياء كثيرة غيرِ عادية، بهدوء وبساطة كأنها لا تفعل.

ربما لم ألتقط ذلك كله وأنا دون العشرين من عمري. ولكنني ما إن تخرّجتُ من الجامعة حتى ذهبت إليها آملة أن تقبل الإشراف



على بحثي للماجستير. قَبِلَتْ. علّمتني. والأهم: فتحت لي ببساطة باب بيتِها: عرّفتني بالدكتور سويف وبأهداف وبالصغيرين آنذاك، ليلى وعلاء.. وبلا كلام وسّعتْ أسرتَها قليلًا لتشملني ولتشمل لاحقًا أسرتي. كان مُرِيد تلميذَها أيضا، ثم جاء تميم. هي أهدت له كتابه الأول وكان ابن ستة شهور أو سبعة. كنت انتهيت من الماجستير التي أشرَفَت عليها قبل سنوات، وذهبتُ إلى أمريكا وحصلت على الدكتوراه وعدت، وخلّفتُ تميم ورُحِّل مُرِيد من مصر.

تدقُّ بابَ البيت على غير توقّع. تقول أو لا تقول: جئت لأطمئن. تدقُّ الباب تقول: أخذت لك موعدًا مع الدكتور حسن عوّاض في معهد الأورام. نريد رأيًا ثانيًا في وضعك الصحيّ. نغادر معهد الأورام وأنا مثقلةٌ بما قاله الدكتور عن ضرورة جراحةٍ ثانية. تقول: سنذهب معًا إلى أرض المعارض بالجزيرة. هناك معرض للأُسرِ المُنْتِجَة شاركت أختي عواطف في الإعداد له. ولا أعرف إن كان قرارُها رغبةً منها في التسرية عني وصرف انتباهي ولو مؤقتًا عن كلام الطبيب، أم كان إيفاءً بوعدٍ قطعته لأختها عواطف. أتأمّل الواقعة. أتأمّلُ عشرات الوقائع الأخرى.. فيأسِرُني أنها وهي تعلّم وتوجِّه وتبحث وتجتهد وتعيش بين آلاف الأوراق وعشرات المهام تتصرف كأنها أمٌّ خالصة أو أخت، مجردُ أختٍ لأختِها عواطف أو أختها ليلى موسى، أوجدّة طيّبة لأسرة ممتدة تتجاوز رباط الدم.

عند إشرافها على رسالتي للماجستير. لم تكن تُكثر من التعليق، أُقدِّم لها فصلًا من الرسالة، تقرؤه، تقول: «ماشي، كَمّلي!». يأكلني

القلق لأنني وأنا في مطلع العشرينيات لست متأكدة من قيمة ما أكتبُه.
ذهبتُ إلى المناقشة من دون أدنى فكرة عن رأيها في رسالتي..
فاجأتني برأيها.. مفاجأة سعيدة، سعيدة جدًا.

أتردد على بيتها فيحييني الدكتور مصطفى سويف بطريقته الهادئة المُختَصَرَة. يقول بصوت خافت لا يخلو من بَحَّة ورثها عنه علاء الحفيد: «أهلًا يا أميرة!»، ثم ينصرف إلى عمله.

لماذا أحكي ذلك كله؟ لأن أهداف وليلى وعلاء سويف أبناء فاطمة موسى وأزواجهم وأولادهم لا يأتون لي أبدا فُرادى في حضورهم الراهن.. بل يحملون معهم ذاكرة سنوات سابقة، حَوَّلت الصغار إلى كبار، والأطفال إلى فاعلين يُحسب لهم حساب في المشهد السياسي.. غدت الأم جدة، ثم رحلت. وغدا الأولاد والبنات آباءً وأمهات. وغدا الولد الذي ضاع في المطار ناشطًا سياسيًا من الوجوه المشرقة لثورة ٢٥ يناير. أُفكِّر فيه كثيرًا وأنا أكتب هذه السطور، لأنه في السجن. أقول سيخرج من محبسِه ويواصل الحياةَ والثورة. أقول سيكبُرُ ابنه خالد في كَنَفِ والديه وعائلته الممتدة فيغدو ما يغدو..

هل فهمتِ الآن يا سيدتي القارئة لماذا قفزتُ من حديثي عن الزمن إلى فاطمة موسى وذُرِّيَّتها. ولماذا سحبتُ كلامي عن المِرآةِ بوصفِها مقياسًا دقيقًا للزمن؟ لا نحتاج أن نتطلّع إلى أنفسنا لقياس الزمن يا عزيزتي القارئة، بل من الأفضل أن ننظر حولنا وننتبه.

نعم يا عزيزتي القارئة، اخترت فاطمة موسى لأن لها شجرة وارفة، تروقني.. تروقني كثيرًا.

الفصل العاشر

## البنات البنات

«كانت الثورة بمجرياتها على مدى أكثر من عام بمثابة مدرسةٍ هائلة أو جامعةٍ مفتوحة، درسُها مكثّف، تقدم يوميًا بل في كل لحظة، التربيةَ والتعليمَ السياسيَّين لكافةِ طوائفِ الشعب، وتؤمِّنُ لها انتقالًا سريعًا من الانزواء عن الفعل السياسي إلى المشاركة فيه والانهماك في تفاصيله. ومن اللافت تصدُّرُ أعدادٍ هائلة من الأطفال والصبية والصبايا الذين استهواهم هذا الدرس الذي، على غير المعهود من الدروس التي يتلقّونها، لا يقمعهم بل يُفسح لهم المجال، ويعطي المشروعيّة لتمرُّدِهم على سطوةِ أي سلطةٍ قابضة، وإن كانت سلطة أولياء الأمور.

«ولما كان الحلمُ مُلهِمًا، كان من المفهوم والطبيعي أن يُقبل عليه الأقرب إلى عالم الأحلام أو الأكثر احتياجًا لحلم في مواجهة القسوة الخانقة: أعني الشبابَ والفقراءَ والنساء (افحصوا الصور فيتأكد لكم

حجمُ مشاركةِ الأطفالِ وصغارِ الشباب والفقراءِ في المشهد، وكذلك حجم مشاركة النساءِ رغم الطوقِ المفروضِ على العديد منهن، والذي حال دون نزولهن إلى الشوارع، وحضورُ العمّالِ والحرفيين والعاطلين عن العمل وأطفالِ الشوارع)».

هذه فقرة مقتبسة من محاضرة لي أعطيتها في جامعة القاهرة في فبراير ٢٠١٢. وقد أوردتها في مطلع هذا الفصل لأنني أريد أن أتحدّث وإن بشكل مقتضب عن دور النساء في هذه الثورة، وهو دور مُتَفرِّع يتصدّره أمهات الشهداء والمصابين والمعتقلين، ويعزِّزُه دورُ البنات في المسيرات والمواجهات، وعملهن اليومي الدءوب في أطرٍ متعددة ربما كان من أبرزها مجموعة «لا للمحاكمات العسكرية».

يوم الثلاثاء السادس والعشرين من نوفمبر كانت هناك دعوة لوقفة أمام مجلس الشورى احتجاجًا على مادة المحاكمات العسكرية للمدنيين في الدستور المُقترح، وعلى قانون التظاهر الجديد. أردتُ المشاركة ولكن مُريد حاول أن يثنيني. قال: لن تحتملي التدافع ولا الغاز المُسيِّل للدموع! لا بد من مراعاة وضعك الصحي. قبلتُ كلامه وإن شعرتُ بغُصَّةٍ في الحلق، كأن أحدهم أخبرني فجأة أنني غير قادرة على ممارسة الحياة. لم يكن خبرًا سعيدًا.

بعد أقل من ساعة من الموعد المحدّد للوقفة عرفنا أن الشرطة وجّهت خراطيم الماء إلى المتظاهرين، ثم أطلقت الغاز المُسَيِّل للدموع عليهم وضربتهم وسحلت بعضهم. وكأننا لا رحنا ولا جينا. تم القبض على المتظاهرين، من الشباب والفتيات. حُجّةُ السلطة في ضرب المتظاهرين على مدى الشهور الماضية أنهم إرهابيون



مخرّبون ويحملون السلاح.. انتفت هذه الحجة واستبدل بها أنهم يخرقون قانون التظاهر.. وعادت أسطوانة تلفيق التهم القديمة: قطع الطريق، ضرب الشرطة...إلخ. رغم أن المتظاهرين كانوا يقفون على الرصيف ويرفعون لافتات لتوصيل رسالتهم الاحتجاجية إلى لجنة صياغة الدستور المجتمعة في مجلس الشورى.

تحكي منى سيف وكانت ضمن من قُبِض عليهم من المتظاهرين:

«نقلتنا سيارات الترحيلات إلى قسم أول القاهرة الجديدة. في القسم أعلمونا أنه سوف يتم إطلاق سراحنا. رفضنا ترك زملائنا. أطلقوا علينا رجال أمن في زيٍّ مدني. ضربونا. حملونا عُنْوةً إلى سيارة الترحيلات. كان السائق يسير بسرعة ثم يتوقف بشكل مفاجئ مما يتسبب في اصطدام بعضنا ببعض، أو سقوط بعضنا على بعض. دارت بنا السيارةُ كثيرًا حتى دخلت في طريق الصعيد الشرقي. توغّلت في الصحراء، ثم توقّفت. أنزلونا وتركونا هناك. مضت السيارة. قررنا أن نعود مرة أخرى إلى القسم لننتظر الشباب الذين كانوا محتجزين معنا».

ولما كان الأمنُ في دولتنا الرشيدة نشيطًا يوزِّع جهودَه على مختلف المحافظات بالعدل والقسطاس، فقد قام بملاحقة ٢١ فتاة تظاهرن في الإسكندرية، وضربهن وسحلهن. وربما تصادف مرور بعضهن قريبًا من ذلك المكان، ذاهبًا إلى مدرسته أو كليّته فجرّته الشرطة إلى سياراتها واعتقلته. أتحدث عن «بنات ٧ الصبح»، اللائي حكم قضاؤنا «الشامخ» على كل منهن بالسجن ١١ سنة، ما عدا السبع القاصرات اللائي قضت المحكمة بإلحاقهن بمؤسسة للأحداث. ولما

صار موضوع «بنات ٧ الصبح» وما نلْنَه من الأحكام حديثَ المقاهي والمتاجر والمارة في الشوارع والجالسين أمام التلفزيونات في غرف المعيشة والمعروفين «بحزب الكنبة»، قرر الرئيس من موقعه كأب رحيم لكافة المصريين، الإفراج عن البنات. ولأننا لا نعلم ما في الصدور، يصعُبُ علينا معرفة ما الذي دفع أبانا الذي في الحكم إلى هذا العفو، قلبُهُ الرءوم أم أثرُ الواقعةِ محليًّا ودوليًا، وبخاصة أن صورة الفتيات وهن يقفن خلف القضبان في المحكمة بثبات ووجوهٍ مشرقة بالابتسام، كانت مثارًا للإعجاب.

وعلى خلفية صور بنات «٧ الصبح» وأحكام القضاء الشامخ، وترك البنات وجه الفجر في الصحراء بعد ضربهن والتعدّي عليهن، حدثت مواجهات في ميدان طلعت حرب بين الأمن والثوّار. ولما كان الميدان على بُعد خطوات من بيتي سمعت طلقات الغاز والخرطوش وشيئًا من هتافات المتظاهرين.. ثم رأيت دخانًا أسودَ كثيفًا يتصاعد بالقرب من الميدان، ظننته حريقًا، ثم انتبهت أنه ينبعث من إطارات سيارات أوقد المتظاهرون النار فيها للتخفيف من أثر الغاز. أقف في الشرفة، أنادي مُريد، أقول: اسمع: كان صغيرٌ يهتف بأعلى صوته من على سطح البناية المقابلة، يقول: «يثقط يثقط حكم العثكر» يكرِّرُها بأعلى ما تحتمله رئتاه وحُنْجَرَتُه من صوت، ينضم إليه صوتُ طفلةٍ تشاركُهُ الهُتاف، ثم جوقةٌ من الأطفال: «يثقط يثقط حكم العثكر! الداخلية بلطجية! الداخلية بلطجية!». لم أعرف إن كان كورَس الصغار يُرَدِّدُ هتافًا يصلهم من الميدان أم كان الهتافُ استجابةً وردَّ فعل لما يشاهدونه من موقعهم أعلى سطح العمارة المشرفة على الميدان.



الفصل الحادي عشر

## زمانٌ في مكان، مكانٌ في زمان

اليوم الأول من يناير ٢٠١٤. أنا في عمّان. وصلتُ قبل أقل من أسبوعين لأن والدة مُرِيد، السيدة سكينة البرغوثي رحلت. جاءنا الخبر في القاهرة في الثانية عشرة ليلًا، يوم الاثنين السادس عشر من ديسمبر. رتّب مُريد للسفر عبر التليفون وغادر مع تميم فجرًا قاصدين المطار. بعد يومين لحقتُ بهما. لم تتح لي المشاركةُ في الجنازة وطقوس الدفن، ولكنني تمكّنت من حضور الليلة الثانية للعزاء في مقر رابطة آل البرغوثي، ثم شاركتُ الأسرة في استقبال المعزّين في البيت على مدى الأيام العشرة التالية، أعني بيت السيدة التي رحلت والتي بنت هذه الدار وعمّرتها وغرست ما في حديقتها من نباتات، واستقرّت فيها، بعد تنقّلاتٍ متعددة في شقق مستأجرة في عمّان التي انتقلت للإقامة فيها لأن أحدًا من أولادها الأربعة لم يكن متاحًا له العودة إلى رام الله بعد احتلالها.

اليوم استيقظتُ في السابعة والنصف صباحًا وبي رغبةٌ في الجلوس إلى الكمبيوتر والكتابة عن السيدة التي فقدناها. غسلتُ وجهي وفركتُ أسناني، واتجهت إلى المطبخ لإعداد قهوتي الصباحية. حملتُ القهوة وجلستُ للكتابة. غرفةُ المكتب مُربّعة تكاد نوافذُها تحتل حائطين من حوائطها الأربعة. حين أجلس إلى المكتب تكون الواجهة التي أمامي وتلك التي إلى يساري مفتوحتين على الشجر، تجعل منه امتدادًا للغرفة، لأن الشقة في الطابق الأرضي، في مستوى الحديقة، لها باب يفتح عليها وعلى درج حجريّ يقود إلى الطابق الأول من البيت، وإلى حديقة أخرى عُلويّة صغيرة.

تصعد الدرج، ترى عن يمينك حوضًا من أزهار الجُهَنّميّة، وعن يسارك حوضًا آخر من أزهار الجيرانيوم. ويمتد بين الجهتين قوسٌ من القضبان الحديدية الدقيقة، تتسلق عليه في الربيع والصيف ورودٌ حمراء صغيرة تُعرف باسم «روز بومبون». ما أن تنتهي من الصعود حتى تستقبلك عن يسارك ثلاثُ شجيرات متجاورة بحذاء سور البيت، اثنتان من الياسمين البلديّ وثالثةٌ مستقرةٌ بينهما من الياسمين العراقيّ. في ليالي الصيف ينشرُ الياسمين رائحتَه، وينثرُ أزهاره المُنَمْنَمَةَ البيضاء تحته ومن حولِه. يتسلّق الياسمين الحائط الشرقيّ ويترك للسَّرْو الحوض، خمس سروات عالية وكبيرة واثنتان صغيرتان مُشَذَّبتان بجوارهما شجيرة ورد بلديّ وشجيرة ليمون، حمل مُريد لأمه شتلتها من مصر، كما حمل لها منها زهرةَ عصفور الجنة، وغرسها ورعاها فصارت تكرمه كل عام بزهرتها الفريدة.



حوضُ السَّرْوات يمتد إلى السياج الحجري الفاصل بين البيت والشارع ويميل معه ثم يتوقف عند المدخل ليتيح حيّزًا لبوابته الحديدية الصغيرة التي تفضي إلى باب الشقة الخشبي. ينتهي الحوض الأول ليبدأ بعد الباب حوضٌ ثانٍ إلى يسار الداخل. في زاويته الغربية شجرةُ غار عالية كثيفة الأوراق، يجاورها تعريشةُ عنب يسمّونها في البيت التعريشة العُلوية. يحيط بهذا الحوض إطارٌ مُشَذَّب من الخُزامى طيبة الرائحة. أما حوض السروات فيحيط به إطار من حصى البان الأكثر كِتمانًا من الخُزامى، لأنه لا يبوح لك برائحته إلا لو فركتَ أوراقَهُ الدقيقة بين يديك أو سقيتَه بالماء أو سقاه المطر.

حين نأتي إلى عمّان في العُطلة الصيفية، نقيم في هذه الشقة بالطابق الأرضيّ، وهي شقة صغيرة مكوّنة من غرفتين، غرفة نوم متّصلة بحمام، وغرفة مكتب، بها، فضلا عن المكتب والمكتبة، أريكة ومقعدان وثيران. وبها مطبخ صغير ودورة مياه. تتيح لنا هذه الشقة درجة من الاستقلالية وتسمح لمن يريد أن يكتب أن يجلسَ إلى المكتب ويُنجزَ ما يريد، لأن بيت والدة مُريد كبيت جدي في حُلْوان بيتٌ مفتوح يأتيه الضيوف على مدار اليوم بلا موعد. وقد تدوم الزيارة النهار بأكمله وقد تمتد لأيام، وأحيانا أسابيع.

فتحتُ السواترَ الخشبيّة للنوافذ وجلستُ إلى المكتب. لون السماء حليبيّ. يمتد الضباب كثيفًا وواطئًا يكاد يصل الأرض، ويملأ الفراغات بين البيوت. أمامي مباشرةً شجراتُ الزيتونِ الأربع، لا تحمل الآن زيتونًا لأن موسم جمع الزيتون انقضى قبل شهرين. في

نهاية الصيف أو بداية الخريف تكون هذه الأشجار مُحَمَّلة بالثمار. وشجرُ الزيتون يا عزيزي القارئ إن لم تكن على معرفة به وبحكايته، شجرٌ مُعَمِّر يعيش مئات السنين، يحمل ثمرًا وفيرًا في عام، وفي العام التالي لا يحمل إلا القليل من الثمر، كأنه يستريح أو يستجمع طاقته لحمل السنة اللاحقة.

وصف القرآنُ شجرةَ الزيتون بأنها شجرةٌ مباركة، ووصفها سوفوكليس على لسان أوديب بأنها مصدرُ خوفٍ لجيوش الأعداء. ولذلك ربما يعمل الإسرائيليون بلا كللٍ على اقتلاعها. يأتون بجنودهم وجرافاتِهم ومناشيرِهم الكهربائيّة ويُعملونها في الجذوع المُعمرة، وتكون المذبحة. ولا أدري إن كانت سَكينة فكّرت في أي فعلٍ مقاوِم وهي تزرعُ الزيتونَ عِوَضًا عن الزيتون المُقتلع أو المُفتقد في بلدها المحتل، أم أنها كانت بعفوية وبساطة تزرع الزيتون لأنها رأت أهلَها يفعلون ذلك وعاشت كما عاشوا في ظل مواسمِه، تأكُلُ من ثمرِه وزيتِه على مدار العام.

لا، لم تغرس سكينة الشجراتِ الأربع التي أشرت إليها فحسب، بل غرست إحدى عشرة شجرة، ستًّا منها أمام البيت، فعليًّا في الشارع على الرصيف، زاد عليها شجيرة صغيرة نمت وحدها بقدرة قادر، ونقص منها شجرةٌ ماتت، كما يموت للمرأة التي تنجب عددًا من الأولاد والبنات، طفلٌ من أطفالها فيبقى غائبًا حاضرًا، لأنه مات وإن لم يغب عن الذاكرة القريبة أو البعيدة.. كذلك شجرة التين الخضاري (أي الأخضر) التي في الزاوية ماتت قبل عدة سنوات.



يقول مُريد: قتلتها شجرة الزيتون.. الزيتونة معمِّرة جذورُها قوية وتمتد، التينةُ أضعفُ منها.

ماتت التينة. لم يبق منها إلا جذعُها المقطوع شاهدًا أنها كانت ذات يوم خضراء ومثمرة.

في الزاوية بعيدًا عن الزيتون، شجرة لوز يجاورها شجيرة مِيرَمِيّة. لا أغلي أوراقها وأشربُ منقوعَها إلا لمعالجة آلام في المعدة أو الأمعاء.. أما سكينة فكانت على طريقة أهل القرية، تشرب الشاي كل صباح بالمِيرَمِيّة. وأحيانًا بعد الظهر تشربه بأوراق النعناع.

شهدت الأردن في الأسبوع السابق على وصولنا عاصفةً ثلجيةً عاتية دمّرت الأشجار وقطعت الغصون وسدَّت الطرقات، وعطّلت وصول سيارة الإسعاف لحمل سكينة إلى المستشفى، فحملها ابنها مجيد وحفيدها غسّان، ثم عادا بها إلى البيت بعد أن قام الأطباء بعمل اللازم. ولكنها رحلت في الليلةِ ذاتِها. آثارُ العاصفة واضحة في حديقة سكينة، ولكن أشجار الزيتون التي أنصفها سوفوكليس ووصفَها بأن أحدًا من الشيوخ والشباب لا يستطيع تدميرها، بقيت على حالها ناهضةً مكتملة.

ليس الكلام عن الزيتون وغيره من أشجار الحديقة استطرادًا يا صاحبيّ القارئ والقارئة إذ يصعب الحديث عن سكينة البرغوثي دون الكلام عن أمور ثلاثة هي في رأيي أكثر ما يُمَيِّزُها: مهارتُها في التطريز والحياكة، ونجاحُها اللافتُ في تربيةِ أولادها الأربعة، وفي رعايةِ النباتات والشجر. هي زرعت هذه الحديقة بطابقيها. حديقة

صغيرة في الحالتين. لا تتجاوز مساحة الحديقة السفليّة، الكبرى، قيراطًا من الأرض. في الجهة الغربية من هذه الحديقة السفلية، أنشأت سكينة تعريشةً للعنب، ثم تعريشة أخرى في المستوى الأعلى (التعريشة المجاورة لشجرة الغار). في الصيف يكون الكَرْمُ استوى وتدلّى عناقيدَ حمراءَ داكنة أو خضراء يضرب أخضرُها الفاتح إلى خمريّ أصفر رائق وشفّاف. تتأملها، تقول أنصف الرحبانيّة في الغناء عن «ثُريّات العِنَب». قبل أيام القطاف تُرتّب سكينة لتغليف العناقيد في أكياس ورقيّة لحمايتها من العصافير. لكلّ عنقودٍ كيس. تستمع إلى محمد المزارع الذي يأتيها مرة في الأسبوع، أو تنصحه بأن يفعل كذا وكذا. وحين يستوي العنب، تُرفع الأكياس لقطف العناقيد، نأكل منها ونشرب من عصيرها. تأتي سكينة بسلال كبيرة من البلاستيك وتوزّع من كَرْمِها على الأهل والجيران.

تقع تعريشةُ العنب في الجهة الغربية من الحديقة السفليّة. يجاورها شجرةُ أسكادينيا ثمارها صغيرة برتقالية لامعة، وشجرةُ سفَرْجَل فاكهتها أكبر، أشبه بالكمثرى، لا تستبدل أخضرها الليموني إلا عند نضوجها في الخريف فيغدو أصفر شمسيًا. وشجرةُ برقوقٍ أحمر يضرب إلى البنفسجيّ، يسمّونه «بُوز العِجْل»، شجرةٌ كبيرةٌ عالية ثمرُها وفير يتساقط الناضج منه حولها فتسبِقُكَ إليه العصافيرُ والدود. وفي الحَيِّز الطينيّ الممتد من التعريشة إلى الحائط الشرقي، الفاصل بين البيت والجيران، زرعت سكينة ثلاثَ شجيراتِ ليمون. خلفها، أقرب إلى السور، شجرةُ كمثرى (رأيتها تكبر سنة بعد سنة،



ودائما ما تطرح ثمرًا وفيرا)، وثلاث شجيراتٍ تُفّاحُها بلديٌّ صغير. وإلى يمين شجيرات الليمون، في الحَيِّز الأقرب إلى نافذة غرفة المكتب، شجرة فستق بقيت لسببٍ أو آخر صغيرةً لا تُثمر، تجاورها شجرة مشمش.

وأنا أجلس إلى المكتب أحاول وصف الحديقة، لمحت مجيد، شقيقَ مُريد يروي الحديقة. قلت له عبر النافذة: صباح الخير، قال صباح النور. قلت لنفسي: ربما يتواصل مع أمه بسقي أشجارِها. أردت أن أسأله عن ذلك، ولم أفعل.

قال لي مجيد: إن المُزارع الذي أتى لرفع الغصون التي سقطت وقص ما انكسر منها، سيأتي ليتخلّص من الأوراق الجافة ويقلّب التُربة، ويُسمِّدها، ويُقلّم الأشجار ويرشّها لحمايتها من الدود والمواد السامة. قال مجيد: أخبرني المزارع أنه سيأتي يوم ٢٥ يناير ليُنجز تلك المهام. لم أُعَلِّق. لم أسأله إن كان المزارعُ مصريًّا، ولكنني لسبب ما كنت موقنةً أنه مصري.

أنظر أمامي وأنا جالسةٌ وراء المكتب. خلف شجرات الزيتون الأربع عمارة من عدة طوابق بُنِيت قبل بضع سنوات. كانت الأرضُ التي بُنيت عليها ملكَ مجيد. ولأن سكينة البرغوثي كالطبيعة لا تقبل الفراغ، فقد اتّفقت مع مقاول نقَل لها تُربةً محمّلة على سيارتي نقل. غطت الأرض بالتربة وبدأت في مشروعها: زرعت الأرض بشتلات اشترتها وغرستها وواظبت على رعايتها. بعد أقل من ثلاثة أعوام تحوّلت الأرضُ القفر إلى بستانٍ أشجارُه مثمرة: تين وزيتون ولوز

ومشمش وخوخ وتفاح. وفي الفراغات بين الأشجار زرعت زعتر وميرَمية، وكوسة وطماطم وفلفل روميّ.

وكانت سكينة حين فلحت هذه الأرض، بمساعدة مزارع أحيانًا، تقترب من الثمانين من عمرها، أي والله، الثمانين!

كنا في بيتنا في القاهرة حين اتصلت بنا وأخبرتنا أن الأرض ستباع!.. قالت: ألا يمكنكم شراؤها؟ تميم، ألم تتخرج وتحصل على الدكتوراه؟ ألا تستطيع شراء الأرض؟ لم نقدر على ذلك وبدا لنا سؤالُها لتميم طريفًا. لم نتخيّل معنى هذه الأرض بالنسبة لها. تم بيع الأرض. ورأت سكينة بعينيها اقتلاعَ الأشجار التي غرستها. تابعت الجرّافات وهي تُمهّد الأرض للحفر عميقًا فيها.

الآن وأنا أسترجعُ الواقعة أشعر بالخجل من نفسي لأنني وأنا الكاتبة افتقدت الخيال، ولم أفهم حين قالت لتميم ألا تستطيع «انتشال العائلة»؟ إن اقتلاع أشجارِها كان أشبه بالغرق! تحتاج ولدا من أولادها أو أحفادها لانتشالها منه..



الفصل الثاني عشر

## أربعُ نساء

وُلِدَت النساءُ الأربعُ تباعًا خِلالَ خمسِ سنوات. أكبرهن عمتي عزيزة، الشقيقة الوحيدة لأبي، وهي تصغره بقليل. وُلِدَت عام ١٩١٩، وهو ما وجدته مدونًا في ورقة مُصْفَرَّة متآكلةِ الأطراف، بين أوراقِ لأبي كان وضعها في حافظة جلدية. لم أعد أذكر إن كانت شهادةَ ميلادِها أم عقدَ زواجِها أم وثيقةً ثالثة.

في عام ١٩٨٠ حين رأيتُ مها ابنةَ أخي طارق للمرة الأولى، بكيت.. كنت أرقد في المستشفى عقبَ جراحةٍ من تلك الجراحاتِ التي تهبطُ عليّ فجأة كأنما بالبراشوت. لم تكن مها التي وُلدت قبل تميم بعشرة أيام، بلغت الثالثة من عمرها. لا أعرف لماذا بكيت. لكنني انتبهتُ إلى أن الصغيرةَ تُشبهني وتُشبه عمتي عزيزة. ولو قلت ذلك الآن لحاتم أو وائل اللذين يألفان شكل عمتي لاستغربا الكلام؛ لأن مها التي أخَذَت عن أمها القَدَّ الممشوق، غدت امرأة جميلة، تعتني

كثيرًا بمظهرها.. تخرّجت من الجامعة وتزوّجت وخلّفت. صارت تسكن مع أسرتِها في إحدى المجتمعات الجديدة خارج القاهرة، في بيت يتوسَّط حديقتَهُ الواسعة حوضُ سباحة. وتعاونها في رعاية صغارها مربِّيةٌ آسيوية. تحمل مها صغارَها والمربيّة، في سيارتها الأنيقة وتقودها بهم إلى هذا المكان أو ذاك.

أما عمّتي فلم تذهب إلى المدرسة كما ذهب إخوتُها الذكور، ولا انتقلت مثلهم إلى القاهرة للدراسة الثانوية ثم الالتحاق بالجامعة. ولم يستقدم لها أبوها أو إخوتُها شيخًا يُحَفِّظُها القرآن ويُعَلِّمُها القراءة والكتابة، كما حدث لجدّتي لأمي مثلًا. بقيت عزيزة في بيت أبيها الحاج محمد عاشور تاجر المنيفاتورة إلى أن تُوُفِّي، فقبل إخوتُها طلب الحاج فهمي الأهواني الزواج منها. وكان الحاج الذي يمتلك مضاربَ للأرز، وسيمَ الوجه فارعَ الطول، ويكبرها بأكثر من عشرين عامًا.

انتقلت عزيزة من بيت أبيها في بلبيس، إلى بيت زوجها في البلدة نفسها. لا تغادر البلدةَ إلا كل عامٍ أو عامين لتزور إخوتَها في القاهرة أو تعودَ طبيبًا أو تقضي حاجة ضرورية. تزورُنا. تتعاملُ كضيفةٍ حيِيّة. تنتحي جانبًا وتجلس مع أمها (جدتي فاطمة التي انتقلت للإقامة معنا بعد موت جدي)، تتبادل معها الحديث همسًا.

نعم أرى الآن بوضوح أن عزيزة كانت تشعر بالغُربة في بيت أخيها، وأن علاقتَها بزوجة أخيها المدنية المُهَذَّبة، بقيت رسميةً بدرجة ما، لأن ميّة خجولة وقليلة الكلام، أو لأن عزيزة تستحي من زوجة أخيها بنت المدارس التي تستطيع العزف على البيانو، وتُعَلِّقُ في



بيتِها لوحاتٍ رسمتها ولوّنتها، وترتدي ملابسَ أنيقة تدعو للإعجاب وتؤكد المسافة. تقول تفضّلوا إلى مائدة الطعام ولا تُلِحُّ ولا تقسم إصرارًا أن تتذوق ضيفتها كذا وتأكل كذا.

وكانت عمتي حين نذهب مع أبي إلى بلبيس لزيارتها، تملأ لنا صحوننا بكم لا يُعقل من الطعام، وتُشدِّد علينا وتقسم أن نأكل.. وحين يأتي دور المانجة التي أحبها، تضع لي عدة حبّات كبيرة، فأضحك وأقول: هذا قليل يا عمّتي! لا تلتقط الدُعابة وتضاعف الكم الذي يُتخم عشرة!

ورغم ذلك لم تكن علاقتي بهذه العمّة الوحيدة علاقةً وثيقة، لماذا؟ لا أدري.. وإن كنت أُرجِّح أنني كنت أستشعر وجود حاجزٍ يفصلُها عن الآخرين وأنا منهم، ويحول دون تعبيرِها عن مشاعرها، أو ربما يجمّد المشاعر وينفيها في مكان يصعب الوصول إليه..

أُضيف ما لم أكن أعرفه أو أدركه في طفولتي، أن عائلة أبي «العَشايْرَة» في بدايات القرن العشرين، وربما قبل ذلك وبعده بعقدين أو ثلاثة، كانت تُوَرِّث الذكور دون الإناث. وحتى عندما قرر أبي وشقيقاه التنازل عن بعض ما ورثوه لأختهم، بقيَ الأمرُ على ما أتخيّل، موجعًا لأنه جاء من باب التفضّل لا الحق.

ولما كانت عزيزة هي الأخت الوحيدة لأشقائها الذكور، تصغُرُ ثلاثتهم.. ولما كانت أُمِّيَة لم يتح لها الذهاب إلى المدرسة أو حتى الكُتّاب، في حين درس شقيقها الأكبر في معهدٍ زراعيّ وتخرّج شقيقاها الثاني والثالث من كلية الحقوق وكلية التجارة في جامعة

القاهرة.. أقول لا بد أنها كانت تعقد المقارنات فيتحوّل شعورُها بالظلم إلى مرارةٍ لم تفصح لي أبدا عنها وإن استشعرتُها حتى وأنا طفلة تجهل التفاصيل.

وعلى غير علاقتي بعمّتي عزيزة، كانت علاقتي بعمتي عليّة، وهي ابنة زوج عمة أبي، أكثر حميميّة. عليّة عاشور أصغر من عزيزة بخمسة عشر عاما أو أكثر. كان أبي يعتبرها أختَه الصغرى، ويرعى شئونها، إذ واجهتها صعابٌ كثيرة في مقتبل حياتها. انفصلت عن زوجها وهي في العشرين فمنعها من رؤية صغارها (وكانوا أربعة، نعم أربعة لأنها تزوّجت في الرابعة عشرة من عمرها). ولما تزوّجت مرة ثانية بعد عدة سنوات، رحل زوجُها مُخلِّفًا لها ثلاث بنات كُبْراهُنَّ في الرابعة، والصُّغْرَى بنت سبعة شهور.

كانت عليّة رغم مِسحةِ حزنٍ في عينيها تسرحُ بها بعيدًا في بعض الأحيان، تمور بالحيوية والإقبال على الآخرين. تستدرج طارق المُغرَم بالكلاب: أتيت لك بكلبٍ جميل. تعال أُعطِهِ لك. تضمّني بقوة كلما رأتني كأنني قادمة من سفرٍ بعيد أو مغادِرة إلى مكان قصيّ. تطري عليّ وتبالغ، لأنني ببساطة أروق لها، وهي تحبني حبًّا مُعلنًا غير مشروط. أذهب لزيارتها، تمسك بيدي وتدور بي على جاراتها لتريهن رضوى الصغيرة، تلفت انتباههن إن لم ينتبهن، إلى وجهها وعينيها وثوبها والشريطة البيضاء التي تربط خصلة من خصلات شعرها.

والحق أن عليّة في ذلك الزمن وهي دون العشرين، كانت شديدة الجمال يزيدها حسنًا حيويتُها وإقبالٌ على الحياة ميّزها طوال عمرها



وترجمته في اهتمامها بالآخرين وحرصها على أناقة ملبسها وبيتها، ورعايتها لاحقًا لبناتها الثلاث اللائي أخذن عنها الحسنَ اللافت.

وحتى كتابة هذه السطور وقد بلغت عمتي عليّة الخامسة والسبعين وربما تجاوزتها، يصعب عليك أن تتصور أنها نشأت في بلدة ريفية ولم يزد نصيبها من التعليم المدرسيّ على بضع سنوات. تظنُها وهي تستقبلك في بيتها، تقدم لك الشاي أو تدعوك إلى مائدتها أنها تدرّبت في معهد من المعاهد المتخصصة لإعداد بنات الأسر العريقة المالكة.

حين كتبتُ عنوانَ هذا الفصل، لم تكن عليّة عاشور ضمن النساء اللائي أنوي الكتابةَ عنهن، فهي أصغر منهن سنًّا.. ثم إن لها حكايةً طويلةً عريضةً متشعّبةً قائمةً بذاتها، طالما فكّرتُ في كتابتها، ولكنني لم أفعل.. ربما لأنها تخصّها وتخصّ أولادَها وبناتِها.

* * *

في عام ١٩٢٠، كانت عزيزة طفلةً تحبو أو ربما تخطو خطواتِها الأولى في بيت العائلة في بلبيس، حين وُلدت سكينة في قرية دير غسانة في شرقي فلسطين.. لم يكن الفارق بينهما هو السَّنةَ الفاصلة بين ميلاد هذه وتلك، ولا الحياةَ الميسورة نسبيًّا في بيت تاجر المانيفاتورة الحاج محمد عاشور، بل كان الفارقَ بين حضور الأب وغيابه. مات والد سكينة وعمرُها ستتان، ووضعت أمُّها شقيقَها الوحيد بعد وفاة والدِه ببضعة شهور. كان اليتمُ فارقًا، لم تتعافَ منه سكينة حتى أدركتها الشيخوخة وامتلأ بيتُها بالأولاد والأحفاد. تشعر بالوحدة والغُربة وبافتقاد السَّنَد. لم يكن فيها مرارة بل سخط وتَوَجُّس مَن نوايا الآخرين. لا تنسى أبدًا مَن حال دون مواصلتها

الدراسة بعد الصف الرابع الابتدائي، ومن تعتقد أنه كان عقبةً دون زواجها من قريبها الذي حمل لها دُمية ذات يوم، من بيروت حيث كان يدرُس، أو ربما جلس بجوارها وساعدها على قراءةِ صفحةٍ في كتابِها المدرسيّ. حوّلت سكينة حكاية ظلم القرية لها والشاب الذي أحبّته ولم تتزوجه، إلى تراث عائليّ يكاد أولادُها وأحفادُها ومعارفُها يحفظونه عن ظهر قلب.

نعم كان بين سكينة والدنيا ثأرٌ لم تتسامح أبدًا فيه.. ولأنها عنيدة ونشيطة استدّت منه بوضوح وبشكل مُركّب. لم تنس. واظبت بشكل يوميّ تقريبًا على نشر ما تعرّضت له من الظلم. وانهمكت في إتقان الحياكة والتطريز وغرس الشجر وتربية أولادها الأربعة. تريد لهم أن يكونوا الأفضل في البلد. ونجحت، رغم قسوة الظروف، في تحقيق ما تريد. تحبهم حب الأمهات الطاغي وتشعر حتى وقد تقدّم العمرُ بها أنهم مِلكيةٌ خالصة لا تقبل مشاركة الآخرين لهم فيها إلا ظاهريًا ومن باب التهذيب. تشعر بالهجر، لأنهم ذهبوا إلى أشغالهم وأسرهم. لا تفصح عن شعورها وإن أومأت إليه تلميحًا وفي تعليقات عابرة.

ولما كان زوجها، أبو الأولاد، رفيقًا وطيبًا وقليل المطالب، كُنيَتُهُ في البلد «الحَنُون»، فقد أفسح لها الحيِّز وتركها تفعل ما تشاء. هي لم تنتبه كثيرًا، لأن شعورها بالظلم كان غالبًا ومتصدرًا. وهو كان هادئا ويتّسِع كأنه كما وصفه تميم ذات يوم، أمدّها بالقماشة التي ترسم عليها ما تريد. قال تميم: تصوري لو كان حجرًا مثلا فيه دُكنة ونتوءات، كيف كانت تُشكّل حياتها على خلفيته؟



قبل أكثر من ثلاثين عاما، في بيتنا في القاهرة، قالت لي إنها تريد أن أكتب لها قصة حياتها. قلت: أحاول. أتيتُ بشريط كاسيت وشرعنا في التسجيل. بدأت بالحديث عن أمها وظروف القرية في السنوات التالية مباشرة على انتهاء الحرب العالمية الأولى. كانت بليغةً، لديها ما تحكيه، وكانت قادرة على استحضار وقائع مرّ عليها أكثر من نصف قرن، منفعلةً بها كأنها جرت منذ لحظات. ولكنها فجأة توقّفت. قالت: سيُغضب هذا الكلام الأولاد. وقد يُغضب الأعمام وأولاد الأعمام فتفسد علاقتهم بالأولاد. حاولتُ إقناعَها بمواصلة التسجيل، لم تقبل.

بعد خمس سنوات من محاولة التسجيل الذي لم يكتمل، وكنت أزورها في عمّان، أعطتني مخطوطة من ٢٨ صفحة مكتوبة بخط صغير على ورق فولسكاب. قالت كتبتها لي سمر. وكانت سمر طالبةً جامعية تقيم مع شقيقها في الشقة المقابلة للشقة التي استأجرتها حماتي في صويلح. قرأتُ المخطوطةَ وتحيّرتُ فيما أقوله. لم يُعجبني الأسلوب الإنشائيّ المباشر في الكتابة. ولا المبالغات التي تَشفي الغليل ولا تصنع أدبًا. ولم يرُق لي تقسيم العالم إلى أشرار وقفوا ضدها وطيبين ساندوها، وربما أربكني افتقادها للتسامح. سألتني عن رأيي. قلت على استحياء: ربما يمكن أن نكتب القصة بشكل أفضل. لم تتوقّف أمام ما قلته؛ لأن الكتابة المباشرة كانت تُعبِّر عن رغبتها في الاحتجاج الصارخ، تتناسب مع غضب مضطرم، لم يخمد مع مرور السنين!

في الثمانينيات أهديتُ لها كتاب فدوى طوقان «رحلة جَبلِيّة.. رحلة صعبة» وهو سيرتها الذاتية. فتحت سكينة الكتاب، وضعت نظارة القراءة على عينيها، وانقطعت لقراءته. لم تتركه إلا وقد انتهت منه. سألتها: ما رأيك؟. قالت: أنا رحلتي أصعب!

وأنا أكتب هذا الفصل، عدت إلى قراءة المخطوطة التي كتبتها لها ابنة الجيران. وكانت بين أوراق قليلة خلَّفَتها عند رحيلها. لم يتغيّر شيء من انطباعي الأول. ولكنني انتبهت لأمرين لم أكن انتبهت لهما عند قراءتي الأولى قبل ثلاثين عاما: أولهما، كان اليُتْمُ عنصرًا أساسيًّا في تكوينها، يفسّر خوفَها المقيم، وإحساسَها بأن وضعَها فريد، لا يمكن مقارنته بأوضاع الآخرين.. وغربةٌ تدفعها للتنقّل المستمر:

تقيم في كَنَف زوجها في القرية أو خارجها. تقيم مع شقيق زوجها لأن زوجها يعمل في مكان بعيد. تترك البيت. تذهب للإقامة مع أخيها. لا تشعر بالارتياح. تعود للإقامة مع أمها في القرية. تنتقل إلى اللِّدّ حيث يعمل زوجها. تغادرها مع زوجها وصغارها وقد سقطت اللِّدّ في يد الصهاينة، فاحتلوها وطردوا أهلها وأقاموا المذابح. تعود إلى القرية. تطلب من زوج خالتها أن يستأجر لها شقة صغيرة في القدس. تذهب إلى القدس. تقول هذه الشقة كالقبر، خانقة. تتركها. تنتقل إلى رام الله.

لا أدري كم عدد البيوت التي أقامت فيها سكينة، ولكنني أعرف أنها عاشت في دير غسانة، وفي أريحا، وفي اللِدّ وفي المَفْرَق وفي الزرقاء وفي القدس وفي رام الله وفي عَمّان. لاحظ يا سيدي القارئ

أن هذه الأماكن موزَّعة بين الساحل الفلسطيني والضفة الغربية وشرق الأردن. وُلِدَ مُريد في دير غسّانة. وولد منيف شقيقه الأكبر في أريحا. وولد مجيد الأصغر من مريد بثلاث سنوات في اللّدّ. أما علاء أصغر الأولاد فقد وُلِدَ في المَفْرَق.

ربما فرضت هذه التنقلات ظروف عمل الزوج أحيانًا، ومدارس الأولاد في أحيان أخرى أو الاحتلال كما حدث في اللّدّ عام ١٩٤٨ وفي رام الله عام ١٩٦٧، وإن لم تغادر سكينة رام الله مع النازحين. بقيت في بيتها عدة أعوام يُشقيها أنها لا تستطيع اللقاء بأولادها، لا يمكنهم دخول الضفة لأنها غدت محتلة، ولا يمكنها الذهاب إليهم لأن الحصول على تصريح من الحاكم العسكري أمرٌ صعب ومُعَقَّد.

وعلى مدى صفحات المخطوطة الثماني والعشرين نرى سكينة تحمل صندوقها وماكينتها الصغيرة، ماكينة الخياطة التي اشترتها لها أمها قبل أن تتزوج، ثم لاحقا تحمل صغارها وماكينتها، وتنقل أثاث البيت إن كان قليلا، أو تبيعه إن صعب نقله، وترحل. ورغم أن الغربةَ والتنقّل من مكان إلى مكان حالة فلسطينية خالصة، فإن سكينة لم تنتبه على ما أظن، لذلك. لم تربط بين معركتها للبقاء والسياق التاريخي لبلد محتل. ويبدو لي أن شعورها الغالب باليُتم جعلها تعتقد أن معاناتها، تجربةٌ فريدة، تفصلها عن الآخرين وتميّزها عنهم.

* * *

وُلِدَت أمي في حُلْوان عام ١٩٢٢. لها صورة فوتوغرافية مُثَبَّتة في جواز سفر قديم صادر عام ١٩٢٦. حكت أمي لي أن والدها

أراد أن تلحق به أسرته: زوجته والطفلتان في لندن. كان يَدْرُس في مدرسة الدراسات الشرقية آنذاك والمعروفة الآن بمدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية (سُواس)، وهي كلية تابعة لجامعة لندن. تقول أمي: رفض جدي محمد فكرة السفر. لم يفهم ضرورة تعريضنا «للمخاطر والبهدلة». استخرجنا جواز السفر ولم نسافر. في الصورة امرأة عشرينيّة يكشف غطاء رأسها الموصول بملاءة نألفها في صور النساء في ثورة ١٩١٩، عن خصلةٍ كبيرةٍ من شعرها. هذه جدتي أسماء. على جانبيها الصغيرتان، ترتدي كل منهما معطفًا. الصغرى في الرابعة لها وجهٌ مُدَوَّر وشعرٌ أملس تغطي قُصَّتُهُ جبينها. هذه هي أمي مَيَّة، التي ينادونها بميّ، والكبرى دون السادسة، لها قصة الشعر نفسها، هي خالتي بُثَيْنَة.

ستدخل أمي المدرسة بعد شهور من تاريخ تلك الصورة، وحين تبلغ السادسة عشرة من عمرها تكون أتمّت المرحلة الثانوية وحصلت على الشهادة المعروفة آنذاك بالتوجيهية. بدا لها أنه من الطبيعي أن تلتحق بالجامعة، وكانت طالبة مجتهدة متفوِّقة في اللغات وفي الرياضيات.. ولكن أحدًا من الأسرة لم يتحمّس للأمر. ولا أدري إن كان جدي وهو أستاذ اللغات الشرقية وآدابها في كلية الآداب جامعة القاهرة اعترض على التحاق ابنته بالجامعة، أم كان الاعتراض من والده أم من زوجته (جدتي أسماء) التي لم تفهم حتى بعد ذلك التاريخ بربع قرن لماذا سمح لي أبي بالالتحاق بالجامعة! وكنت الحفيدة الأولى التي يُسمح لها بذلك.. ثم أبدت انزعاجًا واضحًا لأن



أبي لم يمانع في خروجي إلى العمل حين تخرّجتُ بتفوق وعُيِّنت معيدة في الكلية..

نعود إلى ميّة المنتبهة والتي حكت لي باعتزاز أن مدرستها، «حُلْوَان الثانوية للبنات» هي التي سبقت إلى الخروج للتظاهر احتجاجًا على اتفاقية سنة ١٩٣٦: غادرنا المدرسة واتجهنا إلى مدرسة البنين ورحنا نهتف حتى تشجّع الأولاد وخرجوا لمشاركتنا في المظاهرة.

أنهت أمي دراستها الثانوية عام ١٩٣٨. بعدها بعام أو عامين بدأت تتعلّم الرسم على أيدي راهبات «العائلة المُقَدَّسَة» في حُلْوَان. كانت الراهبات تدرِّبن الفتيات على إنجاز لوحات بألوان الزيت، غالبًا ما تكون لمَشاهد استشراقية لجملٍ في الصحراء أو قافلة أو امرأةٍ منقولةٍ صورتُها من لوحة لأحد فناني القرن التاسع عشر الفرنسيين، أو مشاهد لقصور في البندقية تُشرف على مراكب سابحة في الماء المحيط بها.. وكانت مَيَّة وهي تتعلم الرسم، تنظمُ الشعرَ أحيانًا وتتعلم العزفَ على البيانو، أو تجلس بالقرب من باب غرفة مكتب أبيها لعله يطلب منها أن تُعِدّ له كوبًا من الشاي.

تزوجت مَيَّة من المحامي عام ١٩٤٢. أنجبت طارق ورضوى وحاتم ووائل. وفي عام ١٩٥٤، بعد ولادة أصغر أولادها بثلاث سنوات كتبت خطابًا لأبيها وكان عُيِّن سفيرا لمصر في باكستان (كان يتقن الفارسية والأُرْدِيَّة؛ حقّق «الشهنامة» ونقل إلى العربية من بين ما نقل «المثنوي» لجلال الدين الرومي، وشعرا لمحمد إقبال). ألمَحَت مية في رسالتها أنها ترغب في الالتحاق بالجامعة لمواصلة

تعليمها. لم تقل لي أمي -وكانت تقدِّس والدها تقديسًا- إن كان ردُّه حمل لها رفضًا واضحًا أم إشارة غير مباشرة فهمت منها عدم إقراره للأمر.

ربما تمر يا سيدي القارئ مرورًا سريعًا على عبارة «كانت تُقدِّس والدها تقديسًا»، لأنها عبارة جاهزة لن تنبّهك إلى عمق العلاقة ومترتّباتها. كانت أمي متيّمةً بأبيها، ترى فيه مُطْلَق الكمال أو لنقل مقياسًا تضبط به إيقاع حياتها، وتقيس به وعليه غيره من البشر.. لذلك لم تتمكن من تجاوز فقده منذ رحيله إلى رحيلها هي، (يفصل بين الواقعتين أكثر من نصف قرن). ورغم أنها كانت محاطة بزوجها وأولادها وأمها وأخواتها والأعمام والخالات، بقي هذا الفقد أشبه بهوةٍ أو ثقبٍ أسود لا تغفل عنه، وتخشى الاقتراب منه.

واصلت ميّة حياتها. كبّرت الصغار. تخرّجوا من المدارس والجامعات. شغلوا هذه الوظيفة أو تلك. تزوّجوا وخلّفوا لها أحفادًا.

في السبعين من عمرها عادت إلى الرسم. رسمت لأبيها لوحة بألوان الزيت، نقلتها عن صورة فتوغرافية مُلَوَّنة التُقطت له قبل رحيله. بعدها راحت ترسم على القماش المخصص للتصوير بالزيت، وترسم وتلوّن على الحرير وعلى الزجاج. تحمل لوحاتها إلى محلٍّ يصنع الأُطُرَ الخشبية، تنتقي الإطار المناسب لكل لوحة. تُعلِّق بعض لوحاتها في بيتنا في المنيل وتهدينا البعض الآخر. أهدت تميم، وهو في الرابعة عشرة من عمره لوحةً نقلتها على ما أظن، من رسمة لبهجت عثمان، كانت منشورة في مجلة الهلال. وكانت أمي تواظب



على قراءة هذه المجلة الشهرية منذ الأربعينيات. تُصوِّر الرسمة التي أهدتها أمي لتميم حنظلة ناجي العلي، مع أبيات من قصيدة لمحمود درويش. تقول الأبيات:

خسرتُ حلمًا جميلا/ خسرتُ لسعَ الزنابق/ وكان ليلي طويلا/ على سياج الحدائق

وما خسرتُ السبيلا، وما خسرتُ السبيلا.

* * *

أصغرُ النساء الأربع لطيفة الزيات التي وُلدت في دمياط عام ١٩٢٣. ولأن والدَها كان موظفًا من موظفي الدولة ينتقل مع أسرته على طريقة ذلك الزمان، من مدينةٍ إلى أخرى تبعًا لمطالب وظيفته، عاشت لطيفة في دمياط وفي المنصورة وفي أسيوط. وعندما تُوُفِّيَ والدُها انتقلت مع الأسرة إلى القاهرة حيث يعمل شقيقُها الأكبر ويدرس شقيقُها الذي يليه. وفي غياب الأب، كانت الأم الخائفة من تغوُّل الدنيا عليها، تُحكم إغلاق النوافذ والأبواب، تخشى من النسمة العابرة. ولكن لطيفة أفلتت. تمكّنت من الالتحاق بالجامعة والمشاركة في النشاط الطلّابي، حتى غدت قبل تخرّجِها مباشرةً قائدةً طلّابيّة بارزة. لدينا صورة من تلك الفترة اختارتها دار الهلال لتكون غلافًا لسيرتها الذاتية: «حملة تفتيش: أوراق شخصية». تقف الفتاة ممتلئة الجسم نسبيًّا خطيبةً على المنبر. ووراءها علم مصر القديم الأخضر حيث الهلال والنجوم الثلاث.

غدت لطيفة عضوًا في قيادة اللجنة الوطنية العليا للعمال والطلبة التي قادت مظاهرات عام ١٩٤٦. بعدها ستلتحق بإحدى المنظمات الشيوعية التي كانت تملأ الساحة في النصف الثاني من الأربعينيات. تزوّجت زميلًا من زملائها. اعتُقلت معه. خرجت من السجن. انفصلت عنه. بعدها تزوّجت من شخص آخر وانقطعت عن العمل السياسي. ثم عادت للمشاركة فيه، بعد أن انفصلت مرة أخرى. شاركت في مجلس تحرير مجلة الطليعة الناطقة آنذاك باسم اليسار المصري. وفي أعقاب توقيع المعاهدة بين مصر وإسرائيل أسست مع عدد من زملائها لجنة الدفاع عن الثقافة القومية وقادتها إلى أن رحلت.

هي نفسها حكت بعض جوانب حكايتها في «الباب المفتوح» روايتها الأولى، وفي سيرتِها الذاتية المُشار إليها سابقًا، وفي بعض نصوص مجموعتها القصصية «الشيخوخة وقصص أخرى»، وفي روايتها الأخيرة «صاحب البيت». لا داعي إذن لتكرار ما كتبته تفصيلًا وبشكل أفضل.

التقيت لطيفة للمرة الأولى في خريف عام ١٩٦٧. كنت عُينت للعمل معيدةً في كلية البنات جامعة عين شمس حيث كانت تُدرِّس. ولا يخفى عليكِ يا سيدتي القارئة أن مجرد السلام عليها أو الجلوس بجوارها في سيارتها والاستماع لحديثها كان مبهرًا بالنسبة لي.. وقد أخبرتك في الجزء الأول[٧] من هذا الكتاب أن رؤية كاتب

(٧) كتاب «أثقل من رضوى»، القاهرة: دار الشروق، ٢٠١٣.



عن بعد كانت أشبه بتجلّي معجزة. فما بالك لو كان هذا الكاتب روائية يؤكد وجودها أن احترافي الكتابة ذات يوم قريب أو بعيد، حلمٌ قابلٌ للتحقيق.

لم أستمِرّ في كلية البنات إلا عامًا دراسيًا واحدًا. انتقلت بعدها إلى كلية الآداب في جامعة عين شمس. لم نعد نعمل في الكلية نفسها، ولكن الصداقة التي بدأت ذات يوم في خريف ١٩٦٧ ستدوم حتى رحيلها، في خريف ١٩٩٦.

كان لها مقعدٌ مفضّل في غرفة المعيشة، وآخرُ وثيرٌ في غرفة الضيوف، تجلس عليه فيكون ظهرها الى يمين الداخل. في الصباح وساعة العصر تتربّع عليه وتصنع فنجان قهوتها. أمام المقعد مائدة خشبية صغيرة تضع عليها صينية معدنية فوقها «سِبِرتاية» نحاسيّة، وعلبتان، إحداهما للبن والثانية للسكر، وكوب ماء، وفنجان نظيف يستقر مقلوبًا على فُوَّهتِه وبجواره ملعقة صغيرة. تصنع لي فنجان قهوتي. تروقني متابعة طقوسها الصغيرة. أختلس النظر إلى لوحة بيكاسو المُعَلَّقة خلفها في آخر الغرفة على بعد مترين أو ثلاثة من مقعدها. من موقعي إلى يمينها أرى اللوحة عن يساري: الأم الشابة تميل برأسها خفيفًا باتجاه الولد، تحمله بين ذراعيها وتحيط به بيديها والصغير يضع يده على ثديها الأيمن. تنتمي اللوحةُ إلى مرحلة بيكاسو الزرقاء، خلفيتها زرقاء، وإن كان رأس الصغير ورأس أمه وشعرها الملموم إلى الخلف والغلالة التي تحيط بكتفيها مُلوَّنة بالوردي والأسود.

أستمتع بارتشاف القهوة ونحن نتواصل بالإفضاء أو الحديث أو النقاش. أو أشرب القهوة دون انتباه لأننا اختلفنا فاحتدّت أو انفعلتُ فاستغرقني توتّرى أو التعبير عن غيظى أو كتمانى له. لم تكن حادة الطبع إجمالًا فهى لطيفة. اسمٌ على مسمّى. ضحوكة، ساخرة، وجارحة فى سَوْرَةِ الغضب. أخطو إلى الوراء. أنكمش. تزداد غضبًا. تفصل بيننا أرضٌ حرام محاطة بالأسلاك الشائكة. تقف على جانب، وأقف على الجانب الآخر.

بدا لى أننا ندّان. وكان هذا صحيحًا.. بمعنى أننا نتواصل ونتفاهم ونتناقش ونختلف أو نتفق، كأنها لا تكبرنى بثلاثة وعشرين عامًا، وكأننى لا أصغُرُها بنفس الأعوام الثلاثة والعشرين. كأن أمومتها وبُنُوّتى -وهما عنصرٌ أساس فى علاقتنا- مُحدَّدة إقامتُهُما فى مساحة وجدانيّة غير مسموحٍ بخروجهما منها إلى نقاشنا حيث العقل يحاجّ العقل والصغيرة العنيدة لا تقبل إلا علاقة الأنداد.. ندّيّة طريفة أو سخيفة أو ربما ليست كذلك لأن ما فيها من تناقض يعكس علاقةً مركّبة: أمومةٌ - بُنُوّة، وصداقةٌ، وكشفُ حسابٍ معقدٌ بين جيلين تعاقبا على تاريخ مصر.

نعي المسافة الفاصلة، بحزن ربما. نعرف أن محاولة الاقتراب ستصطدم حتمًا بالأسلاك الشائكة. نتحدّث. نتناقش. نذهب معًا إلى هذا المكان أو ذاك، نتشارك فى عشرات المواقف ونتحاشى الاقتراب من الأسلاك الشائكة. هل بدونا علاقة جميلة؟



لا شيء يتبدد. لا شيء يضيع. لا شيء يمضي. تفاجأ بالرعشة فى ركبتيك وأنت تصعد السلم إلى عيادة الطبيب ثم تهبط مغادرًا وبيدك تقريرٌ عن ورمٍ خبيث فى الرئة. لا تملك سوى أن تقول لها الحقيقة لأنها أذكى وأكبر من أن تبيع لها وهمًا تردّه لك عاتبة على استخفافك بها. أحمل لها التقرير. أنقل لها برفق كلام الطبيب. أتحدّث فى هدوء. تُنصت بهدوء. لا تقول سوى عبارة مقتضبة بصوت خافت: «أمرٌ حزين». تشردُ قليلًا، ثم تنتقل إلى موضوع آخر.

* * *

وأنا أراجع هذا الفصل انتبهت إلى أنني أغفلتُ الحديث عن امرأة خامسة. قلت لنفسي ها أنا ذا أنزلق فيما انزلق فيه نجيب محفوظ، حين قفز عن أم حنفي في «ثلاثيته». أفرد نجيب حيّزا كبيرا لكل شخصيات أسرة السيد أحمد عبد الجواد، نسائها ورجالها، الكبار والصغار. قدّم تفاصيلَ حياتها من البداية إلى النهاية، ومن الخارج والداخل، إلا أم حنفي، رغم دورها المركزيّ في حياة الأسرة، تعاون أمينة الأم في أشغالها المنزلية، وتخبز للأسرة عيشَها اليوميّ. والحق أن نجيب، في ثلاثيته وغيرها من روايات هذه المرحلة، بدا أستاذًا في الإحاطة بحياة الطبقة الوسطى القاهرية في النصف الأول من القرن العشرين، وإن بقي الفقراء في نصه في الهامش لا يتوقف عندهم، إلا بشكل عابر وسريع، في صورة درويش هنا أو جارية هناك.

المهم أريد الحديث عن حميدة البارودي، أم جلال، أو دَادَة حميدة كما كنا نناديها. لا أعرف تاريخ ولادتها وإن كنت أُرجّح أنها

وُلدت في الفترة نفسها التي ولدت فيها النساء الأربع، في السنوات الأولى من القرن العشرين أو ربما قبلهن بعام أو عامين.

لا أذكر لقائي الأول بها لأنها وفدت على بيتنا عام ١٩٥٠ أو ١٩٥١. ستعيش بيننا حتى رحيلها في منتصف الثمانينيات.

امرأةٌ سمراء، تُعْلِمُك ما أن تلتقي بها أن والدتها فلاّحة من الدلتا ووالدها من عسكر الهجّانة، وكانوا من السودانيين الأشدّاء، اكتسبوا اسمهم من الجِمال التي يركبونها وهم يمارسون عملهم في حرس الحدود أو في قمع حركات التمرّد بين الفلاحين. يُمَيِّزهم عماماتٌ مخروطية كبيرة، تزيدهم طولًا على طول. ولأن كل فتاة بأبيها معجبة، ظل لسلاح الهجّانة ارتباطات إيجابيّة في وجداني منقولة عن توقير حميدة لأبيها ومحبتها له. لم أعرف الارتباطات السلبية لسلاح الهجّانة إلا لاحقًا، ولذلك حين قرأت رواية «الأرض» لعبدالرحمن الشرقاوي ثم شاهدتُ الإعدادَ السينمائيّ للرواية، راق لي تقديم التصالح بين عسكر الهجّانة الذين أتوا لترهيب الأهالي ثم انتباههم إلى أنهم فقراء مستغَلون مثلهم مثل الفلاحين الذين جاءوا لقمعهم.. راقتني المصالحة لأنها كانت توفّق بين الصورة الإيجابية التي نقلتها لي دادة حميدة والصورة الأخرى التي عرفتُها لاحقًا عبر القراءة.

جاءت حميدة إلى بيت المحامي لتساعد زوجته في شئون البيت وتربية الأطفال، وكان سبق لها الزواج وإنجاب طفل لم تُكتب له الحياه، وإن منحها اسمها: «أم جلال».



في الخمسينيات كانت حميدة ترتدي، عندما تخرج من البيت، الملاءة اللّف، الشائعة في الأوساط الشعبية في ذلك الزمان، وربما تغطي وجهها ببرقع. لاحقًا صارت تخرج في ثوبٍ عصريّ، وتربط رأسها بمنديل قطنيّ أو صوفيّ. كانت قوية الشخصية، حادة المزاج وتدخِّن. وبدا ذلك طريفًا لأن أيًا من الكبار في بيتنا، أبي وأمي وعمي وجدتي لأبي التي انتقلت للإقامة معنا بعد رحيل زوجها، لم يكن يُدَخِّن. كانت الشخص الوحيد المُدَخِّن في البيت.. إلى أن كبرنا أنا وإخوتي فصرنا مثلها مُدَخِّنين إلا أصغرَنا وائل.

لم تكن مجرد امرأة تساعد في شئون المنزل وتربية الصغار. كانت صاحبةَ سلطة في البيت، ربما لقوةِ شخصيتِها، وسرعةِ غضبِها، أو لأنها مع مرور الزمن غدت أمًّا ثانية لنا. نحبُّها ونطيعُها ونحرصُ على رضاها. نقدم لها هدية في عيد الأم. وتقدم لكل منا هدية في عيد ميلاده. أو تمنح صغارنا حين تزوجنا وخلّفنا، ألعابًا تشتريها لهم، أو أرنبًا أو كتاكيت تعرف أنها ستثيرهم وتفرحهم. وتخبز لهم كما كانت تخبز لنا معجّنات مرشوشة بالسكر، (تفاجئنا رائحتها قبل أن تدعونا إلى غرفة الطعام لنأكل منها أو تحملها إلينا ونحن نجلس إلى مكاتبنا نذاكر دروسنا). لاحقًا كانت رائحة المانجة هي التي تفاجئني أنا وتميم حين نعود إلى البيت في نهاية عطلتنا الصيفية التي نقضيها مع مُريد في المجر حيث كان يعمل. لأنها تعرف أنني أحب المانجة، تشتري كمًّا منها وتضعه لي في المطبخ. كانت كريمة، تنفق في الغالب راتبها كله على تلك المفاجآت التي تسعدها وتسعدنا.

لديّ صورتان لدادة حميدة، إحداهما في منتصف الخمسينيات، تتوسّط الصغيرين حاتم ووائل، والنيل في الخلفية. ربما كان حاتم الأكبر في الرابعة من عمره ووائل في الثالثة. تقف بينهما طويلةً، ممشوقةَ القدّ، وبها بعض امتلاء. ترتدي ثوبًا صوفيًا وتربط شعرها بمنديل مُلوّن.

أما الصورة الثانية ففي السبعينيات أو مطلع الثمانينيات. ترتدي ثوبَ الإحرام. تغطي شعرها بطرحة بيضاء. وكان أبي رافقها إلى الحج. تبدو نحيفة ومُسِنَّة. وكانت شقيقتاها رحلتا، وأولاد شقيقتها الكبرى أو بناتها انقطعوا عن زيارتها وانقطعت أخبارهم عنها. فلما رحلت، قرر أبي أن تُدفن في مدافن العائلة في بلبيس مع والده ووالدته. ورافقها إلى مثواها الأخير أبي وإخوتي وبعض الجيران الذين عرفتهم لعقود: المكوجي، وصاحب الجراج الملاصق لبيتنا، وآخرون.

بعد سنوات من رحيلها، أتت أمي بكومة صغيرة من الحليّ الذهبية: خاتم وسلسلتان وحِلْيَة. قالت: هذه ملك حميدة أعطتها لي لأحفظها لها. لم يأت أحد من أبناء شقيقتها لتسلُّمها. ولا أعرف سبيلًا للاتصال بهم. سأبيعها وأتصدق بثمنها على روحها. رفض طارق. قال لا تبيعي حُليّ دادة. قالت أمي: إذن ثَمِّنُوها وادفعوا ثمنها فنتصدّق بالمال، واحتفظوا بها من ذكراها.



الفصل الرابع عشر

## حرصًا على التوازن والسيمتْرِيّة

أعرف يا عزيزي القارئ أنك تستغرب أو ربما تنزعج من أنني أفردتُ فصلين للكتابة عن نساءٍ أثّرن في تكويني، كأنّ عالمي خالٍ من الرجال. أكاد أسمعُكَ تُبَرْطِم: أين الرجال في نصِّك؟ هل تحاولين إرضاء النِسويّات من القارئات (يعني المتحمِّسات لقضايا المرأة، المدافعات عن حقوقها)؟

حِلْمَك يا سيدي القارئ! لدينا آلاف الكتب بل قل عشرات الآلاف تغيب منها النساء أو يظهرن فيها بما لا يُرضيهن، في الخلفية أو الهامش.. وإن مالت الكِفَّة قليلًا ولو مقدارَ خَرْدَلَة في صف النساء، تمتعض وتعترض؟ ثم إنك متشككٌ ونافدُ الصبر، لا تريد أن تنتظر فيدفعني تعليقُك المتسرِّع إلى كتابةِ فصلٍ عن الرجال يفرض سيمِتْرِيّة فجّة لا تتفق مع هذا النص القائم غالبًا على التداعي الحر لا على هندسةِ المساطر. ذنبُك على جنبِك! على أي حال.. سأفعل

ما تريد، وإن تسبب إلحاحُك في إضعاف النص، ولو أشار النقاد إلى هذا الضعف سأحيلُهم إليك، وأعلمُهم صراحةً أنني لا أتحمّل وزرَ ذلك بل يتحمّلُهُ القارئُ المِلحاح.

أنتقل الآن إلى القارئة، لأُعلِمَها أنني أتعجّبُ من صمتِها. كنت أتوقّع أن تتدخل في النقاش وتساندَني في مواجهة القارئ، لأنني في النهاية فعلتُ ما فعلت انحيازًا لها ورغبةً في عدل ميزانٍ مائلٍ لا يُنصفُها. إذن مرة أخرى ذنبُك على جنبِك، لو استجبتُ للقارئ وقدمتُ له ما يطلب! وإن كان لا بد أن أوَضّح له أن النساء الأربع أتين لي تلقائيًا، دون تأمل ولا تفكير مسبق فكتبتُ العنوان.. وإذا بي أكتشف وأنا في غمارِ كتابةِ الفصل، أنهن خمس لا أربع، ولم أغير العنوان..

ثم ملحوظة أخرى قد يؤكد إدراجها أنني اختصرتُ كثيرًا في الكتابة عن نساء لهن حضورٌ في حياتي: لا تعلم يا سيدي القارئ أن لي خمسَ خالات، وأن خالاتي الخمس لهن من البنات ثلاث عشرة بنتًا، ذلك فضلًا عن بنات عمي وبنات أعمام أمي وبعضهن يقاربنني العُمر، وصديقاتي وزميلاتي وطالباتي، وأن في الكتابة عنهن ما يُغوي؛ ففيهن من التباين في المظهر والمخبر وإدارة كلٍّ لحياتها وتفاصيل هذه الحياة التي توسّعت لتشمل الأزواج والأولاد بل والأحفاد أحيانًا، الكثير.

وقد لا تنتبه إلى أنني أعمل في قسم تشكل فيه النساء أغلبية أعضاء هيئة التدريس وشباب الباحثين، ولو حكيت عن تجربتي في



هذا القسم والتي تتجاوز أربعين عاما، فستتصدر النساء المشهد بما يفوق توقعاتك وخيالك. وأكاد أسمعك وأنت تعلق بما لا يخلو من التشفّي بأنني أنا التي سأفسد نصي فيملُّ منه القراء وينصرفوا عنه. ولكنك لا تدري أن في قسمنا تنوّعًا في الأجيال والأشكال والطبائع والاهتمامات والحكايات المثيرة أو الطريفة أو العجيبة.

إذن عليك يا سيدي القارئ أن تُقدِّر أنني لم أستجب لكل هذه الإغراءات وحَرِصْتُ على التقشّف والاختصار والصرامة في الاختيار. كفَّ إذن عن برطمتك، واتركني أواصل عملي دون إلحاحٍ، وإن واصلتَ الزنّ والهسهسة والغمغمة، فلن أجيبك على مطلبك، لأنني عنيدة بالفطرة، أكره أن يفرض عليّ أحد ما لا أريده أو أقتنع به.

أريد أن أحكي عن فاطمة أبو صالح، جدتي لأبي، وسأحكي.

كانت فاطمة، صغيرة القطع نحيلة، تقسم شعرها الأملس الخفيف بفرق يتوسط أعلى رأسها وتلمه في ضفيرتين فضيتين دقيقتين. لا أراهما إلا حين تتربع على السرير وتصفف شعرها.. كانت تغطي رأسها بطرحة سوداء فتثبّت وجهها في ذاكرتي بهذه الطرحة.

لم تدخل جدتي أيًا من رواياتي، ولكنني كتبت عنها بشكل مقتضب في مداخلة قدمتها في ندوة بمناسبة مرور مائة عام على صدور كتاب «تحرير المرأة» لقاسم أمين. وهنا أقتبس بعض ما جاء في هذه المداخلة التي نُشرت لاحقًا. قلت:

«ولدت جدتي بعد عامين أو ثلاثة من قرار الخديو إسماعيل بإلغاء تجارة الرقيق في مصر، كانت محظوظة لا بسبب ذلك القرار، بل لأنها كأمها وجدتها من قبلها لم تولد في بلاد الشركس ولا في بلاد السودان ما وراء حدود مصر الجنوبية. لم يختطفها أحدٌ في طفولتها. لم ينتزعها من أهلها شخصٌ غامض لا تذكر ملامحه. لم تتناقلها أيدي النخّاسين أو السادة.

وُلدت جدتي في بيت أسرة من شرقي الدلتا مستقرةٍ في هامشها الريفيّ. ميسورةِ الحال نسبيًا؛ فرجالها يعملون في مجال تجارة الأقمشة بالجملة، وانتقلت للإقامة مع زوجها حيث عاشت في بيت لا يعرف الجواري ولا الخدم ولا، على غير المعتاد، تعدّد الزوجات.. ولكنه يعرف بحسم ووضوح تقسيم العمل ومترتّباته في الحيّز الاجتماعي.. يذهب الرجال إلى أعمالهم، يجتمعون في المسجد والمصاقات. ويحملون لذويهم الكسوة والزاد. ولا تغادر النساء البيت أبدًا. يقمن بشئونه كافة ويلدن بشكل دوريّ أطفالًا يموت أكثرهم. (في صباي كنت أسأل جدتي عن عدد الأطفال الذين أنجبتهم. تشيح بيدها، تتمتم، لا تجيب)».

أيام جدتي كان الخروج غير مقبول بل غير معقول. فنساء ذلك الزمان هن «ربّات الخدور» أي يعشن في ستر بيوتهن. وعلى قدر علمي، لم تغادر جدتي بيت أبيها إلا لتنتقل إلى بيت زوجها، ولم تغادر بيت زوجها إلا لمرافقته إلى الحج فحملتهما سيارة إلى السويس ومنها نقلتهما الباخرة إلى الحجاز. وكانت المرة الثانية التي غادرت



فيها فاطمة أبو صالح بيت زوجها الحاج محمد عاشور بعد وفاته، فانتقلت إلى القاهرة وأقامت معنا.

بقي الخروج من البيت حتى وهي تسكن القاهرة حدثًا كبيرًا تضطرب له المشاعر وتنهمر الدموع. تودِّع أختها وزوجة عمي وعمتي حين يأتين لزيارتنا، بالدعوات والدموع. وربما يبدو الأمر مفهومًا في حالة مفارقة عمتي لأنها مسافرة إلى بلبيس التي يفصلها عن القاهرة خمسون كيلومترا، وقد لا تلتقي بها إلا بعد شهرين أو ثلاثة، وغير مفهوم في حالة أختها وزوجة عمي وهي ابنة أخت أخرى من أخواتها، لأنهما تقيمان في القاهرة، لا تستغرق السيارة إلا دقائق معدودة لقطع الطريق إلى بيتيهما أو إعادتهما إليها. ولكن ما بدا لي غريبًا وطريفًا وأنا طفلة غدا مفهومًا لي الآن.

لا أذكر أن جدتي أشارت طوال عمرنا المشترك إلى أحداث عامة، سوى حدثين: «هُوجة عرابي»؛ ووفاة سعد زغلول. وهنا قالت إن الحزنَ عَمَّ البلد وأن الرجالَ صبغوا طرابيشهم باللون الأسود حدادًا. لم أسمع بذلك من سواها ولا وجدت إشارة تعزِّزُه في أي كتاب من كتب التاريخ. هل حدث ذلك في بلدتنا تحديدًا، فسمعت عنه، أم جنّد خيالُها واقعَ المحبة بما يراه فنقل السواد من أثواب النساء إلى طرابيش الرجال؟ لا أدري.

كانت جدتي أمّيّة، تُعيِّن الشهور بأسماء التقويم القبطي، تأتي توت وبابه وهاتور وكياك وطوبة وأمشير وبرمهات... إلخ. وتردد ما يرتبط بها من أمثال، لأنها ريفية ورثت ثقافة الفلاحين وإن كان

والدها وزوجها يعملان في مجال تجارة الأقمشة، لا فلاحة الأرض.
أما الشهور العربية فلم تكن على ما أذكر تعرفها كلها بل تعرف المهم، منها: رجب وشعبان ورمضان وشوّال. والأهم هو رمضان.

لم يكن رمضان جدتي شهرًا من شهور السنة بل حبيبًا تنتظره على مدار العام.. فإن هلَّ هلالُه تتحمم وتتطيّب وترتدي الجديد من ثيابها، وتحدثه وتتواصل معه.. وعند الفراق تودّعه بالدموع. تردِّد في أسى: «يا مِن دَرى أشوفك تاني والاّ لأ!». تبكي لرحيله وإن ابتهجت وهي جالسة أمام لَجَن العجين، تبسّه وتطرّيه وتقتطع منه كراتٍ صغيرة تضغط عليها لتصير كل واحدة منها كحكة تصفّها في الصواني المستطيلة الكبيرة التي ستحملها دادة حميدة إلى الفرن. وبعد أول أيام العيد والأيام الستة البيض تبدأ دورة جديدة من الانتظار.

تحب رمضان حبًّا لافتًا، وتتكحّل في سبت النور، وتبتهج لسقوط المطر في الغطاس.. وفي ليلة شم النسيم تضع ضُمَّة من البصل الأخضر تحت وسادتها، وتنام.. ثم تُبكّر صباحًا لتطلب من أحد أحفادها أن يلقي بالبصل الأخضر في النيل. تنهي صلواتها بالدعاء لأبنائها وأحفادها.. ثم يمتد الدعاء ليشمل الأحياء والأموات من الأهل والأحباب.

لم يدر بخاطري وأنا تلميذة في المدرسة أو في السنوات الأولى بالجامعة أن هذه السيدة التي أشاركها غرفة النوم، تشعر بالغربة. لا لأنها تقدمت في العمر وشحُب نور عينيها وثقل سمعها، بل لأنها افتقدت كل المفردات الأليفة في حياتها. لم تعد مسئولة عن إعداد



الطعام، أو تربية الصغار. ولا أدري إن كان صمتها وهدوؤها الغالب من الصفات الأصلية فيها، أم من الأعراض الجانبية لهذه الغربة. لا يفصل بين غرفتها وغرفة ابنها الأصغر السيد إلا ممر لا يزيد طوله على ثلاثة أمتار. يقول سيد: «صباح الخير يامَّه» ثم يغادر إلى عمله. وحين يعود في المساء يغلق عليه باب غرفته. وكذلك مصطفى المحامي، تأخذه أشغاله. لا تلتقي به إلا على مائدة الطعام ساعة الغداء. وزوجة الأستاذ، أمي هادئة، كلامها قليل. لا أذكر جدتي تتحدث إلا عندما تأتي عمتي لزيارتنا، فتنتحيان جانبا، وتجلسان متلاصقتين ويدور بينهما حديث هامس.

الفصل الخامس عشر

## واقعةٌ طريفة تذيلُها وقائعُ أخرى

لن يخفى عليكم يا قرائي الأفاضِل، إن قرأتم هذا الكتاب بعناية، بجزأيه الأول والثاني. أنني مولعةٌ بالمتاحف والفنون التشكيلية.. وربما ورثتُ هذا الاهتمام عن أمي، وكانت كما أسلفتُ ترسمُ على القماش المخصص للتصوير بالزيت، وعلى الحرير وعلى الزجاج.. ولكنني لم آخذ عنها ميلَها للرياضيّات ولا قدرتَها على حل مسائل الحساب المُعَقَّدة. كانت أمي تساعد إخوتي وهم في المرحلة الثانوية، حين يستعصي عليهم درسٌ في الجبر أو الهندسة أو يفشلون في حل مسألة من مسائلها:

تأخذ الكتاب عندما تأوي إلى فراشها، تستمع كعادتها إلى برنامج «لُغتُنا الجميلة» من المذياع الصغير الذي تضعه بجوار سريرها. وبعد نهاية البرنامج، تُغلق المذياع وتقرأ الدرس بعناية وتحل المسألة. (لاحظوا أن أمي كانت حصلت على الشهادة التوجيهية تخصص

أدبي، عام ١٩٣٨، وأن فعل المساعدة المشار إليه كان يجري بعد ذلك التاريخ بما يقرب من ربع قرن).

أما أنا فتربكني الأرقام وأتعثر فيما يُفلح فيه تلميذٌ في الصف الرابع الابتدائي! ربما لغباء مُستَحْكِم في هذا المجال، أو لأن أستاذ الرياضيّات في المدرسة الفرنسية (لا أذكر اسمه ولا عدد السنوات التي درّسني فيها ولا البلد الذي جاء منه.. فقط أذكر أنه كان يرتدي فوق ملابسه معطفًا قطنيًا أبيض كمعاطف الأطباء والممرضين). كان هذا الأستاذ يسخر منا ويتعالى علينا وينظر إلينا بأَنَفَة واحتقار كأننا ذبابٌ سقط في صحن حسائه.

نفرتُ من الحساب.

كذلك لم أرث عن زوجي وابني -إن كانت المرأة تأخذ صفاتٍ وراثيّة من زوجها وأولادها- الأذنَ المنتبهةَ للموسيقى والإيقاع. علاقتي بالموسيقى علاقةٌ واهية، وبي قدرةٌ لافتة على إفساد أيِّ لحنٍ أردِّدُه، وإنتاجِ النشاز بيسرٍ وتلقائية!

ما علينا، نعود إلى المتاحف وزيارتي الأولى لمتحف اللوفر، في صيف ١٩٧٤، في طريق عودتي إلى مصر من أمهرست في شرقي الولايات المتحدة حيث كنت أدرس للدكتوراه.

الواقعة الطريفة تخصُّ وقفتي أمام تمثال «فينوس دي ميلو». كان التمثال الرخامي معروضًا أعلى درج عريض إلى يسار الداخل إلى المتحف. كان موقعُهُ ظاهرًا ولافتًا لزوار الطابق الأول، وللصاعدين



على الدرج المؤدي له، أو الهابطين إليه من أعلى السلم المُتفرِّع عن يمينه ويساره.

وقفت أختكُم رضوى أمام التمثال تتأمله: تمثالٌ إغريقيّ قديم من الرخام لامرأة عارية الصدر والجذع. أما باقي الجسم فيحجُبُه إزارٌ تتعدد طيّاتُه ويمتد من أسفل البطن والردفين إلى القدمين. فقد التمثال في رحلته الطويلة عبر الزمن، ذراعيه، فلم يبق منهما سوى جزءٍ صغير من أعلى الذراع اليمنى. أما اليسرى فلا وجود لها.

هذا هو الجانب العاديّ لا الطريف من الواقعة. لأن رضوى وقفت مشدوهةً أمام ذلك الميل المزدوج، العبقريّ في رأيها آنذاك، لجذع التمثال إذ يميل الجذعُ خفيفًا إلى اليسار ثم بخفة ماكرة وبقدرة قادر (أعني منشئ التمثال لا منشئ الكون)، يستقر مائلًا إلى اليمين. كيف؟ بدا لها أن هذه الحركة المزدوجة هي مصدر جمال التمثال. قالت كيف أصفه لمُريد عندما أعود إلى القاهرة؟ وإذ بها تُحَرِّك جذعَها خلسة مرة واثنتين وثلاثًا في محاولة لمحاكاة الميل المزدوج للجذع، موقنةً أن ذلك ممكن، لأن اللحم والدم لا بد أكثرُ مرونة من الحجر.

لم تتزحزح من موقعها إلا وقد بدا لها أنها ستتمكّن من نقل ما استوقفها في التمثال لمُريد، حين تصل إلى القاهرة.

أكاد أسمعك يا سيدتي القارئة تقولين: لماذا لم تلتقطي صورة للتمثال؟ وإن لم يكن معك آلة تصوير أو لم يكن مسموحًا بالتقاط الصور، فلماذا لم تشتري بطاقة من المتحف عليها صورة التمثال؟

لم أفعل لا هذا ولا ذاك! أنا أحكي لك ما حدث ويكفيني أنني أتذكّر ما جرى رغم أنه جرى قبل أربعين عاما..

ذيل الواقعة حدث بعد عدة شهور. في يناير ١٩٧٥. توقفتُ في لندن لا في باريس. وكنت في طريق العودة لاستئناف الدراسة في أمهرست. وقفتُ طويلًا في «التيت جاليري» لأتأمل تمثال «القُبلة» لرودان. أحببت التمثال وحسيَّةً لافتة ينطق بها الرخام، وندِيَّة في تلامس الجسدين. تأملتُه طويلًا. وقبل أن أغادر، اشتريت كُتيِّبًا فيه مستنسخاتٌ مُصوَّرة من التمثال كاملًا أو من بعض تفاصيله، التُقِطَت من زوايا متعدِّدة. أرسلت الكُتيِّبَ بالبريد، إلى مُرِيد في القاهرة. لا أذكر إن كنت أرسلته من لندن صباح اليوم التالي أم حملتُه معي إلى أمهرست وأرسلته له من هناك.

لم أشتر كُتيِّبًا فيه صور التمثال الآخر الذي شاهدته في اليوم نفسه، رغم أنه استقرَّ في ذاكرتي لسنوات يطرح عليّ الأسئلة. أعني تمثال «المُفكِّر» لرودان. تمثالٌ كبير من البرونز لرجلٍ عارٍ في وضعِ جالس، يستند بمرفق ساعدِهِ الأيمن إلى ركبته اليسرى. ويوفر بيده اليمنى متكأً للرأس. جسدٌ قويٌّ عارٍ يكشف ضلوعَ الصدر والظهر وعضلاتٍ مُتوتِّرة مشدودة تميِّز الكتفين والأطراف. لا أذكر إن كان السؤال تبلْوَرَ في رأسي وأنا أقف أمام التمثال ذلك اليوم الشتائيّ من يناير ١٩٧٥، وإن لازمني بعدها عدة سنوات، متشعِّبًا ويُلِح. تُرى كيف يكون تمثال «المُفكِّرة»؟ ما موقعُ تاءِ التأنيثِ هنا؟ هل يمكن أن نقدِّم المرأة العارفة وهي عارية الجسد؟ هل يمكن الإفلات من موروث



مستتبٍّ في الفن والحياة ما زال فاعلًا إلى يومنا هذا، يُحمِّلُ الجسدَ الأنثويّ ما يُحمِّله، ويأبى فصلَهُ عن الشهوة؟

لست واثقةً بأن استخدام كلمة الشهوة في العبارة السابقة دقيق، لأن في الجسدِ الذكوريّ العاري لتمثال رودان جمالًا حسيًّا لافتًا. ما المشكلة إذن؟ ربما أن حِسيَّةَ الجسدِ الذكوريّ لا تتناقض مع الرأسِ المُفكِّرِ المُستَغرِقِ في معارفه، لا تجور عليه بل تعزِّزُه.

كيف يكون تمثالُ المرأةِ صاحبة الفكر والمعرفة ولم يربط تاريخُنا البشريُّ بعد بين بهاء جسد المرأة وقدراتها العقلية؟ يبقى جسدُها موضوعًا للشهوة أو للوظيفة المترتبة على الشهوة، أعني الحملَ والولادة واحتضانَ الصغار.

أحمدُ الله على أي حال أنني لا أعمل في مجال النحت أو التصوير فينتقل السؤال من الحَيِّز النظريّ إلى معضلةٍ عليّ حلُّها في تمثال يُلِحُّ عليّ بنحتِه. ومع ذلك لا مانع يا أعزائي القراء أن نتشارك في تأمل السؤال: كيف يكون تمثالُ المفكِّرة؟ وما موقع الجسد العاري للمرأة من هذا الأمر؟ لا عجلة، لنفكِّر بأناة، لعلنا نصل إلى إجابة شافية.

أعدت قراءة الفقرات السابقة. قلت سيظن القارئ أنني امرأة مُترَفَة ثرية، تملك التنقل بين العواصم والمتاحف. اليوم في باريس واليوم التالي في لندن، أو في أمستردام أو بازل. باختصار من أغنياء القوم الذين ما أن يعِنَّ لهم السفر إلى مكان بعينه حتى يشتروا التذاكر ويحجزوا في الفنادق، وفي غمضة عين يكونون حيثما يرغبون.

والحق أن زيارة هذه العواصم لم تكن اختيارًا أو من باب السياحة، بل كانت أحيانًا ضرورة لأن ذهابي إلى الجامعة التي أدرِّسُ فيها أو عودتي منها كان يقتضي قطع الأطلسيّ، والتوقّف في هذه المدينة أو تلك تبعًا لشركة الطيران التي تَحْكُم مسارَ الرحلة.. ومن باب الدقة لا بد أن أُضيف أن دراستي في الولايات المتحدة كانت اختيارًا، لأنني أردتُ دراسة أدب الأفارقة الأمريكيين، فتقدمت إلى جامعة بها قسم متخصص في هذا المجال. حصلتُ على منحة دراسية تشمل الإعفاء من المصروفات ومرتبًا شهريًّا متواضعًا كان يكفيني بالكاد.

كذلك تدخل رحلاتي العلاجية في باب الضرورة.. وكانت بعض الرحلات في أحيانٍ أخرى دعوةً أُلبّيها لإعطاء محاضرة أو المشاركة في مؤتمر، إلخ. فتستضيفني الجهة الداعية، وتتكفل بالسفر والإقامة. في رحلتي الأخيرة، إلى الدانمارك، وبعد خروجي من المستشفى بما يقرب من شهر، قالت لي عزة: ما رأيك يا خالتي، حين تقومين بالسلامة نذهب في رحلة سياحية؟ قلت: نذهب إلى غرناطة. راقت لها الفكرة كما راقت لي.

جلسنا نثرثر، كلٌّ تُطلق العِنان لخيالها ثم تُلَجِّمه وهي تفكّر في كيفية تدبير المال اللازم لهذه الرحلة.. وإن تمكنّا من تحقيق ذلك فسأحكي لكما يا صاحبيّ تفاصيل الرحلة.. وحتمًا سأضيف إليها ما لم يتح لي كتابته من قبل عن زياراتي السابقة إلى غرناطة، وقد زرتُها أربع مرات: مرتين قبل نشر «الثلاثية»، لمعاينة المكان ومعايشته وجمع ما أحتاجه من مادة تاريخية.. وكانت الثالثة لإلقاء محاضرة عند



صدور الترجمة الإسبانية من الجزء الأول من «الثلاثية».. أما المرة الرابعة فكنت مدعوة للمشاركة في مهرجان أدبي، تضمن حوارًا معي أعقبه توقيع الترجمة الإسبانية للثلاثية.

ولا مجال للتوقف للحديث المُفَصَّل عن هذه الرحلات، رغم ما في ذلك من فائدة محتملة.. لأن إسهام الكاتبات في أدب الرحلات على ثرائه وجذوره القوية في تراثنا، يبقى محدودًا ومعدودًا. ليس لدينا بنت فضلان، ولا بنت بطوطة ولا بنت جبير ولا طهطاوية تعزز مسعانا بتقليد يساندنا ونواصله.

ولأنني ثرثارة منذ طفولتي، حتى إن الملحوظة المتكررة في معظم التقارير الشهرية للمدرسة، كانت: رضوى ثرثارة ومطيورة! أقول لأنني ثرثارة بي رغبة أن أحكي لكما يا صاحبيّ عن بلدة صغيرة شمالي روما، اسمها تاركوينيا وأخرى غربيها اسمها بسكارا.. زرت الأولى لتسلُّم جائزة في النقد الأدبي، وزرت الثانية لتسلُّم جائزة مُنِحَت لي عن رواية لي تُرجمت إلى الإيطالية. أضع تاركوينيا وبسكارا على الرَّف، وكذلك قرطبةَ التي ضعت في شوارعها ذات يوم، ومدنًا أخرى أقاوم الحديث عنها وألتزم الأدب، ولا أخرج عن الموضوع!

الفصل السادس عشر

## فصل الاعترافات

أعترف لكما يا صاحبيّ، أنني لا أُفصح دائمًا عما يشغلُني وأنا أتحدّث معكما. إذن تكذبين علينا؟ لا أكذب، بل أخشى من تشتيت انتباهكما بالتشعُّب هنا وهناك، أو أُفَضّل تأجيلَ مواجهةِ أمرٍ ما قليلًا حتى أتمكّن من نقله بهدوء نسبيّ. سأحكي لكما الآن بصراحةٍ وتفصيل فتفهمان ما أعنيه قبل أن تتسرعا باتهامي بالكذب.

منذ الفصل التاسع أو العاشر يشغلُني أمرٌ لم أفصح عنه ولا أشرت إليه. طلب مني الأطباء في الدانمارك أن أجري فحصًا بالرنين المغناطيسي (وهو الفحص الأول بعد الجراحة التي أجروها لي في مستشفى جامعة أُرهوس). تلقيت رسالتهم وأنا في القاهرة. فذهبت إلى المعمل الذي أتردد عليه في المعادي. ولا داعي لتكرار تفاصيل الفحص لأنه مطابق لما سبق لي نقله في الجزء الأول من هذا الكتاب، حين حدثتكما عن القَرْقَرَة والكَرْكَرَة والدَقْدَقَة وغيرها

من الأصوات التي تجتاحني وأنا مُقيَّدَة إلى سرير ضيِّق، ورأسي محشور في قفص مغلق.

بعد يومين من الفحص، تسلَّمت النتيجة، وأرسلتُها إلى فريق الأطباء في الدانمارك فرأوا فيها ما يدعو إلى القلق. طلبوا أن أعيد الفحص بعد أسبوعين لمقارنة الصورتين.

حملتُ الفحصَ إلى الدكتور أسامة سليمان. فاستقبلني كما هي عادته بالترحاب، وزاد عليه هذه المرة ثناءً على «أثقلُ من رضوى» الذي قال إنه أحبه أكثر من كتاباتي السابقة. فحص الدكتور أسامة رأسي، ثم نظر في نتائج الرنين المغناطيسي، واقترح أن أعيد الفحص بعد شهر لا أسبوعين، فربما كانت التغيُّرات التي بدت في الصورة من أثر الجراحة فيمكن تصنيفها في باب الإنذار الكاذب. قال الدكتور أسامة سليمان: أعطيني رقم أكمل. اتصل به في الدانمارك ونقل إليه وجهة نظره. اتفقا.

بعد أسبوعين من وصولي إلى عمّان، اكتمل الشهر الذي اقترحه الدكتور أسامة سليمان، فذهبت إلى مستشفى يتوافر فيه الجهاز المطلوب. أجريتُ الفحص وتسلمت النتائج. وأرسلتها إلى فريق الأطباء المعالج في الدانمارك. ورحت أنتظر.

لن يَخفَى عليكما يا عزيزَيّ أنني كنت قلقة، أتحسّب مما تكشف عنه الصورة الجديدة. أقول لنفسي لا داعي للتسرّع، ربما كان إنذارًا كاذبًا، يتعلّق بتغييرات في شكل الرأس والمخ ناتجة عن الجراحة. ثم أقول: وقد يكون ارتجاعًا للورم. ويبدو هذا الاحتمال مأزقًا



حقيقيًا قد لا أجد مخرجًا منه، لأن فريق الأطباء في الدانمارك كانوا أوضحوا أن الجراحة التي أجروها كبيرة إلى حد لا يسمح بإجراء أي جراحات أخرى.

هل توافقاني الآن أن مواصلة الكتابة من دون التورُّط في الإفصاح عن هواجسي والالتفاف على الوساوس بعدم الإشارة إليها، كانت سلوكًا حكيمًا لا تصح مؤاخذتي عليه؟

بعد أسبوع أو أسبوعين من إرسال نتائج الفحوص إلى الدانمارك، جاءتني رسالة إلكترونية من أكمل، قال: اجتمع فريق الأطباء لفحص الصور فوجدوا أن كل شيء على ما يرام. لم يزد شيئًا على ما لاحظوه من تغييرات في الصورة السابقة. وبالتالي يُرجِّحون أنه لا علاقة لهذه التغييرات بارتجاع الورم. وأضاف أنهم لم يلحظوا أي علامات على نشاط المرض في المخ أو في فروة الرأس.

وأكد أكمل أن هذه أخبار جيدة. وأن فريق الأطباء يقترح إعادة فحص الرنين المغناطيسي بعد ثلاثة أشهر.

ألا يجدر بكما الآن أن تتراجعا عن لومي وتقدِّرا أنني انتظرت حتى أنقل لكما أخبارًا سارة بدلًا من إشراككما في الهواجس؟ أم كنتما تفضلان «الساسبنس» الصبيانيّ، وتعليقكما معي في الانتظار والقلق؟

أما الأمر الثاني الذي لم أشر له طوال الفصول الخمسة السابقة رغم أنه كان يشغلني صباح مساء، فهو ما يحدث في مصر عمومًا وفي الجامعات تحديدًا. بدا لي المشهدُ ثقيلًا وحزينًا إلى حد اليأس.

ولما كنت مُدَرِّسة بحكم عملي الوظيفي لما يقرب من نصف قرن، فقد ترسّخ في وجداني أن إرسال خطاباتِ يأسٍ إلى الآخرين عملٌ غيرُ أخلاقيّ. ثم إنني أعتقد أن أحد إنجازات الثورة هو شعور الناس بقيمتهم وقوّتهم وقدرتهم بل وبهاء مظهرهم ومخبرهم، وأن الثورة المضادة في المقابل، تعمل بلا كلل على إفقادهم هذه الثقة بأنفسهم وإشعارهم بطرق بسيطة وأخرى لا تخطر على بال إبليس، أنهم بلا قيمة، يستحقون الإهانة.

تمترست بالحديث عن النساء الخمس، وعن جدتي، وعن تمثال أو آخر شاهدته قبل أربعين عامًا. لم أخبركما ساعتها، أنني أتمترس خلف هذا الكلام ولا أشرت أن وعيي كان كنهر النيل في الأساطير الفرعونية القديمة، له مجرى مزدوج. مجرى فوق الأرض وآخر في باطنها لا يراه الناظر.

وما دمت فتحت باب الاعتراف أمامكما يا صاحبيّ، وحكيت لكما ما يشغلني فلا بد أن أحملكما معي إلى المجرى الآخر.

في المشهد كثير مما تعرفان ولا داعي لتكراره، من عودة الداخلية بأدواتها كافة وباستشراس أكثر حِدّة وعنفًا، لأنها تصفّي حساباتها مع الثورة والثوّار: تطلق الغاز بكثافة. تضرب وتسحل وتعتقل وتُعذِّب وتصيب وتقتل، لكن فيه أيضا ما يستحق الحكاية.



## الفصل السابع عشر

## علاء في «تناتيف ماعت»

قبل أن أقتبس رسالة «علاء» التي كتبها في سجن طرة ليلة عيد الميلاد، ولم تنشرها أخته «منى» على موقعها إلا بعد ما يقرب من شهر من تاريخ كتابتها، دعني يا عزيزي القارئ أساعدك قليلًا في فهم اسم المُدَوَّنَة الذي قد يصعب عليك فهمها، إن لم تكن تتحدث بالدارجة المصرية أو تألف الأساطير الفرعونية ونقوش الآلهة التي تزخر بها جدران المعابد في وادي الملوك والملكات في البرّ الغربي في طيبة القديمة المعروفة حاليًا باسم الأقصر، والتي تختزلها الأغنية الشائعة، رغم ركاكتها، إلى: «الُقصر بلدنا بلد سوّاح فيها الأجانب تتفسح».

نبدأ بكلمة «تناتيف» وهي صيغة الجمع من تَنْتوفة المُرادفة لسَنْتوفة في العامية المصرية، وتعني شَذَرَةً من الشَّذَرات أو جزءًا صغيرًا مقتطعًا. أما «ماعت» فهي إلهة لافتة الجمال، يعلو رأسها ريشةُ نعام؛ في يمينها صولجانُ المُلك وفي يسارها مفتاحُ الحياة. ماعِت ابنةُ رع،

كبير الآلهة وزوجة «تحوت»، المرتبط بضوء القمر والمعرفة لأنه مبدعُ الأبجدية والكتابة والتدوين.

ولما كانت ماعِت تُجسِّد الحق والعدل غدا اسمها دالًّا على الصراط المستقيم وتوازن الكون وتناغمه، وأصبحت ريشتُها مقياسًا في يوم الحساب في أساطير قدماء المصريين، يوم يوضع قلب الميّت في كِفَّةٍ وريشتها في الكفّةِ الأخرى، فإن رجحت كفتُها تأكّد للقضاة أن المتهم يليق به الخلود لأنه سلك طريق الماعت أي سبيل الحق والعدالة. إن راقتكَ يا سيدي القارئ، حكايةُ ماعِت، ورغبتَ في التزيُّد، يمكنك الرجوع إلى الشبكة الإلكترونية وقراءة بعض المنشور عنها، والتعرّف على شكلها كما تخيّله المصريون القدماء. فتغنيك الصورُ وكتاباتُ المتخصصين عن وساطة هذا الوصف المُختصَر.

تحت عنوان: جواب من علاء، الأربعاء ٢٢ يناير ٢٠١٤، كتبت منى سيف في مدونتها:

«ده جواب علاء كتبه لنا من السجن يوم ٢٤ ديسمبر ٢٠١٣. قعدنا أسابيع نتفاوض مع إدارة السجن عشان يسمحولنا نتسلمه. في مرحلة ما لما سألنا ليه ما ينفعش ناخد الجواب؟ جالنا الرد «عشان كاتب فيه عن السجن»!

«فوز من عقلي ضرب!

«محبوسه في زنزانة انفرادي، بيقضي ٢٠ ساعة في اليوم على الأقل تمامًا لوحده. أيام الأجازات بيمنعوا عنه التريض فممكن توصل لأنه



محبوس انفرادي ٤٨ ساعة أو حتى ٧٢ ساعة، متوقعين أنه لما يكتب جواب هيكتبه عن إيه؟؟ دريم بارك(٨)!!!

«اترددت قبل ما أنشره.. اترددت عشان الكلام مستخبي جوّاه كَمّ غضب ووجع وإحباط، و بعدين قررت أنشره. دي حقيقة اللحظة اللي احنا عايشينها ليه أنكرها أو أحاول أجمّلها؟!

«كل زيارة بنروح وجوانا هوجة مشاعر: غضب، وجع، قلق من اللي لسه جاي. إحباط، وحشة، راحة لوجود العائلة، و حب... دايما دايما في وسط كل الوجع فيه طاقة حب فايضة!».

بعد هذه المقدمة تنشر منى رسالة علاء الموجّهة إليها وإلى سناء، أختهما الصغرى، تحت عنوان، جواب علاء. وها أنا ذي أنقلها كاملة كما وردت في «تناتيف ماعت»، لم أزد عليها سوى بعض علامات الترقيم تسهيلاً للقراءة.

«إلى منى وسناء

«وحشني جدا مع إني بشوفكم وأنا محبوس أكتر مما بشوفكم برّه. يمكن عشان برّه بقدر اتطمن عليكم في أي وقت وبيقى متابع وفاهم أخباركم، أما في السجن لازم نقرر هنقضي وقت الزيارة القصير نتكلم في أي أخبار، ونقسم الوقت بحرص وطبعا مش هلحق أسمع الأخبار التافهة اللي بتشغلكم منى وسناء. خناقات منى على تويتر أو حالات الرومانسية اللي بتركبها سناء انفرجت

---

(٨) دريم بارك Dream Park: مدينة ملاهٍ في القاهرة.

على ماتشات الأهلي ولا لأ، ومغامراتها العجيبة اللي بتقع فيها من غير ما تاخد بالها.

«يمكن دي أصعب حاجة في الحبس، إن حد يبقى متحكم في وقتك بالشكل ده. لدرجة أنك تتحرم حتى من القلق لأن مش هعرف أن خالد خد دور برد غير بعد ما يكون خفّ. إن حد تاني متحكم في تزامن إحساسنا بنفس الحاجة. يعني مثلا العاصفة الثلجية، وصلني المدد اللي بعتوه عشان البرد بعد ما خلصت خلاص. البلد كلها قعدت ٤ أيام بتكلم بعض عن الطقس لكن على ما وصلتولي في الزيارة مكنش متاح لينا غير إني أطمنكم إن عرفنا نتصرف ووضعنا كويس. مش أن نحكي بحماس عن قد إيه الدنيا برد.

«وأنا بلبس كل هدومي فوق بعض وبرُصّ بطاطين فوق بعض فكرت إن فيه ناس في عشش أو في الشارع معاها هدوم أقل وبطاطين أقل. بس بعد برد ليلة لما قررت إن لازم أسد شبابيك الزنزانة تاني يوم، أدركت إن حتى المشردين يقدروا يقوموا في أي وقت يختاروه يدوّروا على حل للبرد. يمكن يلاقوا ويمكن لأ، لكن إحساسي إن سلطة ما هي اللي بتقرر ببيروقراطية عشوائية إمتى هيتفتح علي وإمتى هلاقي كرتونة أسدّ بيها الشباك وإمتى السطشي هياخد إذن يجيب سلم ويطلع يسدّ الشباك، يقهر.

«أتخيل أنكم بتتعاملوا مع إحساس مشابه وأنتم بتدوّروا على احتياجاتي وفق مواصفات السجن. هدوم تقيلة بيضاء بلا علامات،



سمعت إن مها مأمون اضطرت تفك وتركّب الجاكيتات من أول وجديد عشان يُسمح بها، وعلى ما ده تم كانت الحرارة رجعت.

«ومعرفش مين اللي لف وسط البلد يدوّر على محل لسه بيبيع راديو موجة واحدة، وليه أصلا الهمّ ده؟

«بس كل ده مجرد منغصات بتأكد على فكرة الحبس، إن إرادتك مسلوبة تماما وحدّ متحكم في وقتك وجسمك. المشكلة إنه متحكم في روحي، بيحدد لي أشوف منال وخالد إمتى وأبوسهم وأحضنهم قد إيه.

«والمرعب أكتر إحساس إنه ممكن يقلل، لو أتحكم على الزيارة هتبقى كل أسبوعين مش كل أسبوع، الجرايد بتتكلم عن تطبيق نظام الزيارة بكابينة زجاجية وتليفون، يعني لو اطبّق مش هعرف ألمسكم، هتواصل مع خالد إزاي أنا كده؟!

«واللي يقهر إن ناس كانت عاقلة أول امبارح تكتب في الجرايد تحرّض على منع زيارات زوجات وأبناء المعتقلين عشان الأخوان ميطلّعوش تكليفات وأوامر! كأن المسجون ده مش بشر أصلاً.

«ولا اللي لسه عاملين فيها عاقلين وقاعدين يكتبوا عن إزاي الحكم على ماهر ودومة وعادل نتيجة للاختيارات السياسية الخاطئة لـ٦ إبريل وفقدانهم شعبيتهم، كأن أحمد ماهر ده فكرة مجردة أو كأن المحبوس ده شخصية اعتبارية اسمها ٦ إبريل مش بني آدم عنده بنت عندها ٥ سنين محتاس هو دلوقتي في أنه يشرحلها هو فين وبعيد عنها ليه وهيرجع إمتى.

«قراءة الجرائد عموما بقت مستفزة جدا بعكس الحبسات اللي فاتت بس أهي بتضيّع وقت. ما هو من نتائج أن غيرك متحكم في وقتك إن يبقى عندك وقت كتير مش عارف تعمل بيه إيه.

«ماتتخضوش من كلامي، ظروفنا كويسة ومقارنة بحبسات سابقة احنا في وضع مريح جدا، وفي التريض بنبقي مع بعض ونص اليوم بندردش بالزعيق من بين الزنازين والوقت بيعدي في القراءة.

«وبالمفاوضات الأمور بتتحسن. قعدنا أسبوع نتفاوض على الجرائد والراديو، أدينا أهو بنتفاوض على الجوابات ووعدونا ان الرسالة دي هتوصلكم وبقالنا أسابيع بنتفاوض على حق نشر مقالات وعلى دخول تلفزيونات ويمكن في يوم من الأيام يسيبوكم تدخلوا جوابات من الأصدقاء وتوصلنا تلغرافات.

«الواحد حاسس إنه صائب عريقات[9]، الحياة تفاوض. الدنيا ماشية بس قهرة النفس وِحشة.

«يوم ما اقتحموا البيت وقبضوا عليّ كان خالد عيّان ومش عارف ينام، أخدته في حضني ساعة لحد ما نام. وبصراحة اللي مكمل على قهري أني حاسس أن الحبسة دي ملهاش أي قيمة، لا ده نضال ولا فيه ثورة والعالم اللي مقضيها تفاوض رغم أنهم مش محبوسين دول ما يستاهلوش أني اتحرم من ساعة واحدة

---

(٩) صائب عريقات: كبير المفاوضين الفلسطينيين في المفاوضات الجارية بين منظمة التحرير الفلسطينية ودولة إسرائيل والممتدة لأكثر من ثلاثة وعشرين عاما منذ ١٩٩١ حتى وقت كتابة هذا النص، وقد نشر كتابا عنوانه «الحياة مفاوضات».



فيها خالد في حضني، الحبسات اللي فاتت كان فيه معنى لأني أتحبس وأتمسك، كنت حاسس أني داخل السجن بمزاجي وطالع منه كسبان، دلوقتي حاسس أني مش طايق الناس والبلد وأن مفيش أي معنى لحبسي غير بس أنه يحررني من الإحساس بالذنب لعجزي قدام كمّ الفُجر في الظلم والفُجر في تبريره.

«صحيح أنا لسه عاجز، بس أهو بقيت مظلوم من ضمن المظاليم ومرفوع عني الحرج والذنب. وبصراحة ساعة مع خالد أفيَد كتير.

«أنا أصلا مش بفهم ازاي عارف أعيش من غيره ولا عمري فهمت ازاي بعرف أعيش من غير منال، لما جالنا خبر الضبط والإحضار منال قعدت تحاول تعمل ترتيبات عملية عشان شغلنا ميتعطلش وأنا اتوترت جدا منها ومن جلسة قعدتها مع ميسرة بحاول أسلمه جانب من شغلي وبتفق معاها مين يشيل باقي المسئوليات، كنت عارف زيّها أني هتحبس بس مكنتش عايز أو عارف أفكر ازاي حياتنا تستمر من غير ما نبقى مع بعض. لكن في الآخر أهي بتستمر مش معنى أن إرادتي وتحكمي في الوقت توقّفوا إن الزمن نفسه توقّف.

«الفكرة مرعبة، قدامي جنايتين وواضح أنهم قرروا إن لازم ناخد أحكام، وواضح إن حال الثورة بائس لدرجة أن ينفع ناخد أحكام، يعني الزمن يمكن يفضل واقف عندي وبيتحرك عندكم لسنين، يعني خالد هيكبر من غيري، يعني قدامه أدوار برد كتير هينام من غير حضني.

«أو يمكن لأ، يمكن هخرج بعد شهر أو شهرين، أو يمكن هخرج بعد ما يخلصوا خارطة الطريق الملعونة بتاعتهم. المسألة بمزاجهم والزمن والوقت تحت تحكمهم.

«أنا آسف على الغمّ، أنتم عارفين أني بكره جو أخي أنت حر وراء السدود وقد إيه السجن عظيم ومش هيقدر يكسرنا. في كل مرة بتحبس حتة بتتكسر زي ما في كل مرة حد غيرنا بيتحبس ظلم كلنا بينكسر فينا حاجة، زي كل شهيد بيموت الكل بينزف، صحيح أهله وأحبابه بينزفوا أكثر بكثير بس كله بينزف وكله بيدفع الثمن.

«أنا كويس، قهرة الروح دي أنتم عارفين أني كنت عايش معاها برّه زي ما أنتم عايشينها وكل يوم فيه خبر يعصر القلب وفيه تخاذل بيكتم النَّفَس أنا بس هنا عندي وقت كثير مش عارف أعمل بيه إيه فمركّز مع القهر بزيادة.

«أنا بس زهقت، لكن هتعدي زي ما اللي قبلها عدت وهرجع أشوفكم أقل وترجعوا توحشوني أقل عشان منى هتبقى مشغولة بخناقاتها وشطحاتها الرومانسية وبالتوفيق ما بين أدوارها الكثير اللي بتتنازعها.. وسناء هتبقى مشغولة بمشاريعها الكثير الغامضة ومغامراتها الكثيرة العجيبة من غير ما تاخد بالها أصلاً، وأنا هبقى مشغول بمنال وخالد وبأسباب جديدة للغضب والمقاوحة.

«بحبكم علاء

«سجن ليمان طره ٢٠١٣/١٢/٢٤».



لأن رسالةَ علاء أوجعت قلبي، ولأنني أعرف أن آلاف الشباب معتقلون مثله في السجون، وأن مئات الآلاف يشاركونه «قَهْرَةَ الروح» حتى وهم طلقاء، ولأن الأخبار حملت لي، ما إن انتهيت من نقل الرسالة، خبر إصابة طالب في المجمّع النظري بجامعة الإسكندرية، بطلق ناريّ بين عينيه، أودى بحياته، وعرفت اسم الولد وتأملت صورتيه، صورته قبل الإصابة وصورته بعدها، بدا لي أنني بحاجة إلى فُسحة من الوقت، فاصلٍ أو استراحة، ألتقطُ فيها أنفاسي أو أبكي أو أنحطُّ في كَمَد أو أُنفِّس عن تَوَتُّري بافتعال مشكلة والصراخ في أهل بيتي.

الفصل الثامن عشر

## فصل فراغ

الفصل التاسع عشر

## شرح الأسباب في توقّف الكتابة في الفتـرة من الثالث والعشرين من يناير إلى الرابع عشر من إبريل ٢٠١٤

وجدت من المناسب أن أُلحق هذا الفصل بفصل الفراغ لكي أعتذر لكما يا صاحبيّ عن توقّفي عن الكتابة. وكانت النِية أن أواصلها بعد استراحة قصيرة، ألتقط فيها أنفاسي.

في اليوم التالي، استيقظتُ على خبر انفجار سيارة مُفَخَّخَة أمام مديرية أمن القاهرة في باب الخلق، تسبب في قتلِ أربعة، وإصابة ٧٦ شخصًا وتدمير واجهة مبنى المديرية وبعض قاعات دار الكتب والوثائق المصرية المُلحق بها متحف الفن الإسلامي، وتحطيم بعض مقتنياته الأثرية وإتلاف ٣ برديات وسبع مخطوطات نادرة في دار الكتب. شغلني الخبر نهار يوم الجمعة الرابع والعشرين من يناير. ومن مساء الجمعة إلى مساء السبت، توالت الأخبار:

أغلقت قواتُ الأمن ميدان التحرير بالأسلاك الشائكة والسيارات المُدرَّعة، إشارة واضحة إلى قرارٍ بمنع المتظاهرين من الاقتراب من الميدان للاحتفال بالعيد الثالث لثورة ٢٥ يناير. صباح يوم العيد، لاحقت الشرطة الشباب في شوارع وسط البلد وفي غيرها. توسّعت في القبض العشوائيّ على المتظاهرين وغير المتظاهرين الذين تصادف مرورهم على مقربة من مسيرة ما. أطلقت عليهم الرصاص الحيّ والخرطوش والغاز المُسَيِّل للدموع. استخدمت القنّاصة ومدافع الجرينوف. ومع نهاية اليوم كان واضحًا أن أحياءً بعينها (تحديدًا المطرية والألف مسكن وعين شمس) تعرّضت لما يمكن وصفه بمجزرة. لأن عشرات الجثامين كانت ترقد في المستشفيات بانتظار نقلها إلى المشرحة.

لم تنقل القنوات التلفزيونية الرسمية والخاصة تفاصيل هذه الملاحقات أو المجازر. كانت منهمكة في التركيز على من يحملون صور وزير الدفاع ويرقصون ويهتفون ويهللون له في ميدان التحرير. نعم في ميدان التحرير، لأن الميدان المُغلق أمام المتظاهرين من المعارضين كان مفتوحًا للأنصار أو الأتباع. أما الصحفيون والمصورون الذين أرادوا نقل وقائع اليوم، فقد قامت الشرطة بملاحقتهم ومصادرة آلات تصويرهم، وضربهم وسحلهم قبل حشرهم في سيارات الترحيلات لنقلهم إلى الأقسام أو معسكرات الأمن المركزي.

ويمكنك يا سيدتي القارئة تخيّل صعوبةِ الكتابة في أثناء تلك الأحداث. ولأنني لم أتدرّب على مهام المخبر الصحفي في ملاحقة



المُستَجِدّ من الوقائع وتسجيله ساعة حدوثه.. فقد وجدت نفسي أقف أمام مجريات تلك الأيام عاجزة عن الكتابة. أتابع الأخبار. أقرأ الشهادات. أُسَجِّل أعداد من أُصيبوا أو قُتلوا أو تم القبض عليهم. أقف أمام الأرقام بلا حول ولا قوة: في يوم واحد ١٠٣ قتلى. ٢٧٧ مصابًا. و١٣٤١ تم القبض عليهم منهم ٣٧٠ قُبض عليهم في قلب القاهرة: في عابدين ووسط البلد والأزبكية والموسكي والعتبة ورمسيس. وكان القبضُ عشوائيًا. شمل القُصَّر من أولادِ المدارسِ، وطلّاب الجامعات والصحفيين والنساء.

الأرقام لا تكذب ولكنها تحتاج إلى الخيال ليعيدها من الجداول وحسابات الجمع والطرح إلى أصولها التي تَقْصم الظهر: لأن كلَّ شهيدٍ من الشهداء الذين تجاوزوا المائة، حالةٌ مفردة. وَلَدٌ له اسمٌ وجسمٌ ورسمٌ وحلمٌ وحكاية، ووالدان وأصحاب تبدّلت حياتهم من لحظةِ هرولوا إلى المشرحة ورأوه فيها، إلى نهاية أعمارهم. كل حالة مُفْرَدَة لا تُشبه الحالات الأخرى وإن كانت تُشبهها لأنها قضت في اليوم نفسه، تجاوره في الجدول كما جاورته في المستشفى ثم في المشرحة. أما المصابون فحالتهم تختلف لأن بعضهم حالفه الحظ، يمكنه التعافي من إصابته بعد بضعة شهور، والبعض الآخر لم يحالفه لأن الإصابة تقتضي منه علاجًا ربما يطول لسنوات يشفيه أو لا يشفيه.

أشرت إلى انفجار مديرية الأمن في اليوم السابق وإن لم أشر إلى شكوكي عن المسئول عن هذا الانفجار. بسرعة وسهولة امتدت أصابع الاتهام إلى جماعة الإخوان المسلمين، رغم أن التفجير

بالمنطق البسيط في غير صالحهم، يُعَطِّل خروج الناس في مظاهرات احتجاجية. راحت فئران الشك تلعب في صدري، فتركتها تلعب.

لا دليل عندي على الفاعلين، وإن كان الوسواس الخَنَّاس يوسوس في صدور أمثالي ويذكِّرُهم بحرق المُجَمَّع العلميّ أثناء أحداث مجلس الوزراء في ديسمبر ٢٠١١. تم توجيه التهمة إلى الثوار، وكان الثوار يركضون هنا وهناك لإطفاء الحريق وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الكتب والمخطوطات النادرة. وقبلها محاولة اقتحام االمتحف المصري مساء يوم الثامن والعشرين من يناير ٢٠١١. المحاولة التي واجهها الثوار بإقامة درع من أجسامهم لحماية المتحف.

القياس مهم، إذ قد يتيح لنا استنتاج أسلوبٍ في العمل. وإن كان يصعب توجيه الاتهام على طريقة وزارة الداخلية والخطاب الإعلامي السائد إلى هذه الجهة أو تلك قبل التحقيق في الواقعة. ولما كانت بعض المصادر تتحدث عن انتعاش سوق الآثار المسروقة خارج البلاد، لا يمكن استبعاد إمكانية أن تكون مافيا الآثار من المتهمين المحتملين (وللعلم يا سيدتي القارئة سُرق أخيرا منبرٌ مملوكيّ من أحد المساجد بالقرب من القلعة، وقبل ستة أشهر أي في أغسطس ٢٠١٣ سُرقت مقتنيات متحف المنيا، وهي مقتنيات فرعونية ويونانية رومانية). هل هو نهب منظَّم لا وقت لدى الأمن لمتابعته لأنه مشغول بمتابعة المعارضين؟ لا يقين لديّ سوى أن الجريمة مُركَّبة: جريمة قتل وترويع وتخريب معنى أثري.



في الإعلام السائد جرى الحديث عن متحف الفن الإسلامي، ولسبب أو آخر غير مفهوم لي تم تجاهل دار الكتب الخديوية، رغم أن المتحف ليس سوى فرع من هذه الدار وهي الأصل. واعلمي يا سيدتي القارئة أن الدار تأسست عام ١٨٧٠ حيث تم جمع المخطوطات النادرة من المساجد والمدارس وعُرفت باسم الكُتُبخانة الخديوية. أما مبنى باب الخلق ذو الطراز المملوكي فقد بدأ إنشاؤه في عام ١٨٩٩ وافتُتِحَ للجمهور في سبتمبر ١٩٠٤.

واسمحي لي يا سيدتي القارئة أن أتوقف هنا لأحدِّثك عن بعض حكايتي مع هذه الدار التي كنت أتردد عليها وأنا في مطلع العشرين من عمري. بنتٌ صغيرة السن والقطع، نحيلة، شعرها قصير، مجتهدة في دراستها، تتردد على دار الكتب للبحث عن دوريات قديمة تحتاجها لبحثها الذي سجلته في جامعة القاهرة للحصول على درجة الماجستير. تركب رضوى الأتوبيس. تنزل في ميدان باب الخلق. تتجه إلى باب المكتبة. تصعد الدرج الأليف المؤدي إلى بوابة الدار وتدخل.

تقف مشدوهةً مندوهة أمام المخطوطات المعروضة في الممرات المؤدية إلى قاعات الاطلاع. تتسمّر أمام المصاحف المنسوخة المعروضة خلف سواتر زجاجية، مفتوحة بما يُظهِر صفحتين متقابلتين من صفحاتها. تطيل رضوى النظر إلى خطوط تجهل أسماءها. تنتبه إلى ليونة الحروف، ميلها وانحناءاتها وتقوُّساتها وانحداراتها. تتملّى الزخارف والنقوش في هوامش الصفحات أو أعلاها أو في نهاياتها.

تتطلع إلى تعاشيق ألوانها. تتعرّف على ماء الذهب واللازورد والقرمزي والأحمر مغاير يضرب إلى لون الصندل أو الزعفران الحر. لا تعرف شيئًا عن كيفية الحصول على هذه الألوان.

تلاحظ تمايز الخطوط، ولكنها تجهل أن لكل منها اسمًا وميزانًا وقواعدَ وتفريعاتٍ ومدارسَ وأساتذةً معلمين وأوطانًا تُنسب إليها. تُميّز بالنظر والحس التلقائيّ أنها في حضرة الجمال. تنقصها الجرأة لتقرر أن تترك ما جاءت من أجله وتستبدل به التعرّف على الخطوط فتبدأ طريق التمييز بينها: الكوفيّ والثلث والريحانيّ والفارسيّ، والأندلسيّ والقيروانيّ، والمملوكيّ والأيوبيّ والفاطميّ. ولكن من أين لصغيرة في الثانية والعشرين من عمرها امتلاك الحكمة؟ تفعل المطلوب والمتوقّع.

تدخل قاعة الإطلاع. وفي انتظار الدوريات التي طلبتها تلمح ولدًا دون العاشرة. جاء في بيجامة مخطّطة نظيفة. يجلس على مقعدٍ مجاور. تُرى ماذا يقرأ؟ يدفعها حب الاستطلاع إلى اختلاس النظر حتى تُمَيِّز ما بين يديه. تستغرب. الولد يقرأ مجلة مُصَوَّرة من مجلات الأطفال. أي والله مجلةَ للأطفال. مجلة «سمير» على ما أذكر. الغريب أن المشهد بقي في ذاكرتي. لم أنسه. والأهم أنه عزّز إحساسي بالمكان، كأنه بستان مفتوح للكافة، الصغار والكبار. الباحثين وولد من الحي أراد أن يجلس في أمان الله يقرأ ما يريده ويناسبه. المخطوطات الثمينة النادرة ومجلة تباع في الطريق العام بقرش أو قرشين.



في كل مرة أذهب فيها إلى دار الكتب أتوقف أمام المصاحف المنسوخة والمزيّنة بالنقوش والمعروضة في الممرات قبل توجّهي إلى قاعة الاطلاع. أقوم بعملي بسرعة لأعود إليها. أقف أمامها طويلًا وأغادر بأسف أشبه بحسرة فراق المحبين. ويبدو لي الآن بعد أكثر من أربعين عامًا من تلك الوقفة أن شخصية «أبو جعفر الورّاق» التي تتصدر الجزء الأول من «ثلاثية غرناطة» والتي أتتني ذات يوم بعد ذلك التاريخ بربع قرن، وُلدت في هذا المكان. كأنني تعرّفت على علاقته بالمخطوطات لمحًا هناك. ساعتها كان الرجل في علم الغيب. لا أعرف اسمه ولا حكايته ولا حيّ البيازين الذي يعيش فيه. ولما كانت للكتابة أسرارُها وشجونُها وغرائبُها التي لا نتعرّف عليها أو نعيها إلا تدريجيًا وببطء، أنتبه الآن وأنا أتطلّع إلى وقفة رضوى في ذلك الممر الممتد بين مخطوطات المصاحف النادرة أنها كانت تلتقط رسالة مركّبة لا تحيط بعناصرها، لأنها صغيرة السن، تتعلم درسها الأول ربما في العلاقة بين الجمال والوظيفة. تستقبل الرسالة بعمق وإن لم تع أبعادها، فتستقر في وجدانها وخيالها لتفاجئها ذات يوم بشخصية ورّاق يشهد بأم عينيه إحراقَ المخطوطات في ميدان باب الرملة في غرناطة. يغادر الورّاق الميدان عائدًا إلى بيته. يقول لزوجته: سأموت عاريًا ووحيدًا.. ويموت.

ولأن المبالغة أداة من أدوات الفن للإحاطة بالواقع ونقله، يموت أبو جعفر من إتلاف المخطوطات في الرواية، ولم أمت من إتلاف المخطوطات ولا من قتل شباب يمكن بحسبة بسيطة أن يكونوا

أولادي أو أحفادي فيكون من المنطقي أن أسبقهم إلى الموت، لا أن يسبقوني هم إليه، أو يتعرضوا إلى الحبس ظلمًا والضرب والسحل والتعذيب، ولتدمير بهيميّ ممنهج لأحلامهم.. ولم يقتلني الإعلام على ما فيه من كذب وتزوير وممالأة فجّة لأصحاب السلطة في البلاد. ولا قتلني تدمير أحلامي لأن المرء حين يتقدم به العمر تتآكل أحلامه على ما يبدو، ويصيبها وهن أشبه بما يصيب مفاصله وعظامه.

لم تقتلني الأحداث ولكنها أصابتني بالاكتئاب، فاختلّت الكتابة وتعثّرت ثم انقطعت. ربما يكون التعبير الدارج في العامية المصرية أكثر دقة في وصف الأمر: «طَفَشَت» الكتابة. و«طَفَش» تعني فرّ وشرد لعدم القدرة على الاحتمال. ويُعَرِّف أحمد تيمور في معجمه الكبير في الألفاظ العامية، المفردة بالمعنى نفسه ويضيف أن ابن إياس استخدم اللفظة مرتين، كذلك استخدمها الجبرتي. أما الشيخ حسين حنتور وهو زجّال لم أسمع باسمه من قبل، فقد استخدمها في كتاب له بعنوان: «الطراز المنقوش» حين يقول «عقلي طَفَش».

فهذا ما ألَمّ بي طوال أسابيع. حاولت أن أبحث عن الكتابة، أستعيدها برفق. أحايلُها وأستميلها.. ولكنها واصلت الفرار! أغلقت الملفّ قلت: اتركيها، ستعود من تلقاء نفسها إن أرادت.



الفصل الحادي والعشرون

## خاطرة ومضت في رأسي المحشور في صندوق مُغلق

أوافقك يا سيدي القارئ أن عنوان هذا الفصل يثير الدهشة.. ولكن هذا ما أشار به عقلي فاستجبت له. وتفصيل الأمر أنني ذهبت قبل أربعة أسابيع، إلى المعمل لإجراء فحص الرنين المغناطيسي المقرر إجراؤه بعد ثلاثة أشهر من الفحص السابق، وهو شكل المتابعة الذي أوصى به الأطباء. لن أكرر عليك ما سبق أن نقلته تفصيلًا بدءا من تركيب «الكانولا» في يدي وانتقالي إلى السرير المعدني في غرفة الفحص، ووضع سدادتيين في أذني لإعانتي على احتمال أصوات الرنين، وإغلاق صندوق على رأسي بعد حشره فيه. تقول الممرضة: لا تتحركي، فلا أتحرك.

وأنا محاصرة بالأصوات التي سبق لي وصفها، أنتظر حقني بالصبغة التي تُلَوِّن الأشعة، ومضت في رأسي فكرةٌ غريبة. قلت: هل مصر في وضع مشابه؟

لم يعجبني السؤال لأن مقارنة سيدة ستينية مريضة تخضع لفحص، ببلد كبير له حكاية طويلة عريضة ممتدة في التاريخ والجغرافيا، يحيا في رحابه الملايين من البشر، إلخ تشبيه سخيف أقرب إلى الهلوسة!

قلت: لا مجال للتشبيه أو المقارنة، مجرد فكرة عابرة مرّت برأسي، وربما ولّدها الشعور بأننا نبحث عن خلايا سرطانية تدمّر ما يحيط بها من أنسجة، أو تقفز إلى مساحات أخرى من الجسد لتصيبه بالعطب أو تهدد حياته.. وربما كان الدافع إحساسي بأنني مقيّدة وأن رأسي محشور في صندوق مغلق، يشعرني بالاختناق.

بإمكانك يا عزيزي القارئ أن تُسقط هذه الخاطرة، واضعا في الاعتبار أن رضوى مهمومة إلى حد الاكتئاب.. عليك فقط أن تُذكِّرها بما قالته سابقًا: إن توصيل رسائل يأس أمرٌ غير أخلاقي. قل لها أين سلال الأمل التي تحمليتها كل يوم؟ هل خلفتِها وراءك وتخليتِ عنها؟!

سماحك يا سيدي. أنت على حق. هي لحظة وهن أفلت مني فيها التعبير عن ثِقَل الحمل. وهو مشهدٌ ثقيل:

تُضرب فيه الجامعة يوميا بالغاز المسيل للدموع، ويُطلَق الرصاص الحي والمطاطي لمواجهة تظاهرات قد لا يزيد عدد المشاركين فيها على مائة طالب.. لا داعي لتكرار التفاصيل لأنك تقرأ الجرائد يوميًا، وتتابع نشرات الأخبار وإن عتّمت على الوقائع تجد بعض تغطية لها على مواقع التواصل الاجتماعي فهذه على الأقل لن توهمك أن شباب المتظاهرين قوى إرهابية تُحدق بالبلد، يتوجّب قتلها أو إلقاء



القبض عليها أو فصلها فصلا نهائيا من الجامعة. وقد تتيح لك هذه المواقع بالمنشور عليها من الشهادات والتقارير الانتباه إلى محاولة النظام القديم تملك البلد بكافة أدوات القمع المتاحة.

ولكن الومضة التي مرّت بخاطري ورأسي محشور في الصندوق المشار إليه عاليه، لم تكن على ما يبدو لي الآن محض سخافة، لأنني أعرف أننا في مأزق، وبي حدس أن نتائج هذا الفحص، لو أكدت ارتجاع الورم، مأزق فعلي.

صدق حدسي. كان الورم عاد بهمة ونشاط مستقرًا في ذات المكان كأنه لم يُستأصل عدة مرات من قبل، وعزّزه نتوء مستجد في المساحة بين أسفل الحاجب الأيمن والأذن المجاورة له. وفي مكان ما غير مرئي ولا منظور وافدٌ جديد في تلافيف الفص الخلفي من المخ.

أرسلت نتائج الفحص إلى الدكتور أكمل في الدانمارك فأرسل رسالة إلكترونية جاء فيها بعد التحية والسلام:

«شاهدت الرنين المغناطيسي اليوم بالتفصيل مع طبية الأشعة المتخصصة ومع بيرجيت وجورم، وللأسف.. لايبدو الوضع جيدًا.

«هناك ارتجاع للورم في ٣ أماكن:

- الفص الخلفي للمخ

- الفص الجانبي للمخ تحت العملية الأخيرة

- في المنطقة البارزة التي تؤلمك بجوار العين اليمنى، وهذا الجزء سطحي غير أنه غالبًا ملتصق بعظم الجمجمة تحته

«السؤال الذي سألته وناقشناه اليوم هو: هل هناك علاج؟!

ووصلنا للآتي:

- الجراحة أصبحت تقنيًا مستحيلة لأن الورم الآن أصبح في ثلاثة أماكن منفصلة، كما أن الجراحات المتتالية السابقة رغم تعقيدها وماتلاها من مضاعفات فشلت في السيطرة على الورم.

- العلاج الإشعاعي بجرعات عالية أيضًا مستبعد لاتساع المنطقة المطلوب تشعيعها، ولأن جزءًا كبيرًا من المخ والمنطقه تلقت جرعة كبيرة من الإشعاع من قبل، وأيضًا لأن العلاج الإشعاعي السابق فشل في السيطرة على الورم.

- العلاج الكيميائي ممكن نظريًا لكنه قاس وأعراضه الجانبية المؤكدة كثيرة ومزعجة وأقصى ما يمكن أن يحققه بنسبة لاتتعدى ٩٪ هي أن يبطئ قليلًا من سرعة نمو الورم.

- لايوجد علاج تجريبي مبشر يمكن أن ننصح به..

«بمعنى آخر وللأسف يارضوى لايوجد علاج يمكن أن يشفي هذا الارتجاع السرطاني الجديد.

**«ما يمكن عمله وننصح به هو:**

- الأدوية التي يمكن أن تخفف من الأعراض المزعجة لنمو الورم، مثل المسكنات وأقراص الكورتيزون، وكلاهما ضروري وأتصور أنك ستحتاجن لهما في وقت ما قريبًا وبجرعات قد تزداد مع الوقت.



- حبوب التاموكسيفن التي حدثتك عنها، إن لم تفد فلن تضر وليس لها آثار جانبية تذكر، الجرعة العادية قرص واحد في اليوم. بروفسور إيان جدسون الذي استشرته في استخدامها، اقترح قرصين يوميًا، وأعتقد أنه اقتراح وجيه.

«علاج إشعاعي -بجرعات متوسطة- تعطى عند الحاجة، أي عند ظهور أعراض لاتختفي أو تقل بالكورتيزون والمسكنات.

«الأعراض التي تعانين منها الآن مفهومة، وحتى أكون أمينًا فمن المتوقع أنها -مع ازدياد حجم الورم- قد تزداد في الحدة. من وصفك لحالتك أشعر أن الأعراض حتى الآن خفيفة ومحتملة، لهذا ممكن أن ننتظر قليلًا بدون مسكنات دائمة أو كورتيزون.. لكن تذكري أنك أنتِ هنا من يقرر متى تبدئين باستخدام هذه الوسائل، ونصيحتي ألا تجبري نفسك على تحمل متاعب وأعراض بلا داع.. أريدك أن تحصلي على أفضل «نوعية حياة» في كل دقيقة قادمة.

«أظن أنك ستحتاجين أن تكوني على اتصال بمحمد سعد (الدكتور محمد سعد رئيس قسم العلاج بالإشعاع في مستشفى سرطان الأطفال) أو طبيب أورام آخر يتابع معك العلاج بالكورتيزون، ويقرر معك متى تبدئين العلاج الإشعاعي.. كما أظن أن الدكتور أسامة سليمان يستطيع أن يصلك بدكتور تخدير متخصص في علاج الألم، ليس لأني أتوقع آلاما مبرحة، لكن لتسهيل الحصول على بعض المسكنات القوية، ولسابق خبرتنا أن بعضها قد يصيبك بأعراض جانبية. وبالتالي من الأفضل أن يتابعك طبيب متمرس في إستخدام تلك الأدوية.

تسأليني مايمكن توقعه في الشهور القادمة حتى يمكنك «ترتيب أمورك».. التنبؤ بدقة مستحيل.. لكن بشكل عام أول ما يمكن توقعه أن ما تشعرين به من أعراض الآن قد يزداد حدة، كما أن ازدياد حجم الورم قد يؤدي لضعف في حركة وإحساس النصف الأيسر من الجسم. ما نأمل فيه أن تساعد الأدوية والإشعاع في وقف هذا التطور إلى حين...

لم أتلق ردًا من معهد كارولينسكا بعد. سأتصل بهم مرة أخرى طبعًا وأرسل لهم كل الأشعات.. ولكني بعد أن رأيت صور الرنين كاملة لا أظنهم سينصحون بأي علاج آخر.

أنا آسف يارضوى.. حقيقي آسف!..كان أملي أكتب لك رسالة مليئة بالأمل والتفاؤل.. وكنت أفضل لو قلت لك التفاصيل دي واحنا مع بعض مش في جواب.

غالبًا حايبقى عندك أسئلة بعد ماتقري الجواب ده... لو احتاجتي أو حبيتي إنك تكلميني.. في أي وقت.

إنتو في قلبنا وفكرنا كل الحب منا كلنا.

أكمل،

ما العمل؟ يبقى أن نعرض ما لدينا من نتائج أشعة وتقارير على صديقنا الدكتور [illegible] ليؤكد كلام أكمل أو يطرح [illegible] [illegible]. أكد أن التدخل الجراحي لم يعد ممكنًا. هل قال [illegible] هنا يتوقف الطب وتبقى إرادتنا في مواصلة الحياة. أذكر نبرة صوته ونظرة عينيه ولحظة الصمت التي ألحقها بعبارات حريصة صاغها بعناية.. ولكنني أجد صعوبة في استعادة منطوق كلامه، ربما لأنني كنت أستجمع طاقتي لدور التنكر الذي أرتضيه لنفسي، فأصافحه بود وأبتسم وأشكره.. وربما كان الدور أكثر صعوبة حين أفلتت مني عبارة: أحيانا أفكر في العودة إلى التدخين! فقال مشجعا: بإمكانك أن تعودي إلى التدخين إن أردت! فبدت لي الرسالة واضحة.. لا فرق الآن في خطورة التدخين الضار جدا بالصحة.. كان يريد أن يتيح لي ما يسعدني، لأنه لا فرق.

غادرنا العيادة بهدوء ظاهري ولكن تميم كان متوترا غاضبا كأنه مطالب أن يرفع الراية البيضاء قبل أن ينزل ساحة المعركة. بدا لي موقفه إنكارا للحقيقة تؤكدها الصور والتقارير وخبرة الأطباء. أنتبه في الأسابيع اللاحقة أن تميم بدأ يخوض معركة ويستعد لها. يعد ملفات، ويستخرج عشرات النسخ من الأقراص المدمجة ويستعلم ويبحث ويراسل أطباء ومراكز متخصصة... راسل الدكتور [illegible] في برمنجهام الإنجليزية والدكتور فيليب سالم في تكساس، وأوصل عبر أصدقائه الكثر الملف إلى الدكتور جاتين شاه رئيس قسم جراحة المخ والأعصاب بمركز سلون كاترينج في نيويورك، وأرسل الملف إلى [illegible] ابنة خالتي في باريس لتعرضه على طبيبة متخصصة في أبحاث الساركوما والجديد من الأدوية المطروحة لعلاجها، واتصل بابن عمه غسان الباحث في علوم المخ والأعصاب، وجاء غسان من عمان. يقضيان الليالي يتراسلان ويتناقشان ويبحثان عن الجديد ويتبادلان نسخا كاملة من الملف الطبي.

كنت أقاوم هذا الجهد. أشفق عليه من معركة خاسرة. ثم أشعر بالخجل من نفسي. قال: سنذهب إلى تكساس لأن الدكتور فيليب سالم يقول إن لديه حلولا. قلت: لن أذهب إلى تكساس فأجد الأسبوعين اللذين يخبرنا الطبيب أنه يحتاجهما للعلاج يمتدان إلى شهور كما كانت الحال من قبل.

ذهبنا كما أوصى أكمل للقاء الدكتور محمد سعد رئيس قسم الإشعاع بمستشفى ٥٧٣٥٧ لعلاج سرطان الأطفال. فحصني، وإن أوضح أن حجم الورم المرتجع قد لا يسمح بعلاجه بأشعة الجاما، ولكنه أحالني إلى مركز العلاج بأشعة الجاما في معهد ناصر.

لا أتوب عن حب مصر. أعني أن وجودي فيها، على بعد أمتار معدودة من بيتي يمنحني راحة ويبدد الهواجس والخوف.

النيل المجاور لمبنى معهد ناصر في شبرا بالقرب من روض الفرج حيث مجرى النهر واسع له حضور وهيبة بعد كل جلسة علاج، وأكون نصف مخدرة تغادر المعهد، فأرى أول ما أرى حين نغادر بوابة المستشفى، مجرى النهر ممتدًا أمامي، وحين تنحرف السيارة يسارًا فيسارًا تواصل طريقها فيكون النيل عن يميني. أتطلع إليه في صمت وأنا منكمشة في المقعد الخلفي، يلفني ارتياح عميم. أقول لتميم: ما الذي يحملنا إلى تكساس؟! بعد عشر دقائق سنكون في البيت.

لم يكن النيل وحده، كان مركز العلاج صغيرا وأليفا. في زيارتي الأولى له تعرفت بالطبيبين المسئولين.



الفصل الثاني والعشرون

## عن الأزهار وصديقتي حسناء

لا تستطيع حسناء مقاومة شراء الأزهار. حتى في يوم سفرها إلى لبنان، عدت إلى البيت من جامعة القاهرة لأجد أنها أتت لي بمزهرية أسطوانية من الزجاج بها تسع وردات بلدية حمراء، أحمرها قرمزي، أكاد ألمس مخمله بالنظر.. ومعها سبع زهرات أوركيدا، غصونها طويلة، أخضرها فاتح يلقي بظلال خضر على أوراقها البيضاء، والبراعم التي تنتهي الغصون بها.

في صباح اليوم التالي، رحت أتأمل الأزهار، فانتبهت لوجود سبع زهرات من الدالية متوسطة الحجم، وزهرتين من أزهار الشمر.. كانت مزهرية حسناء على حافة النافذة إلى يساري وأنا أجلس في الصالة، وأمامي مزهرية مرتجلة من الفخار البني بها أزهار حملها لي طلاب الدراسات العليا الذين استقبلتهم ودرّستهم في بيتي يوم الجمعة. كانت باقة من أزهار الدالية البيضاء وبضع زهرات دالية بنفسجية وبينها أزهار اليانسون. عن يميني المزهرية المغربية بها أزهار القرنفل الحمراء.

كنت منهكة وكعادتي عند الاستيقاظ من النوم، تغلبني الهواجس وأفكار عن الموت. ثبّتُّ النظر على الأزهار فخجلت من نفسي.

معركة تميم

بدء العلاج بأشعة الجاما

الرحلة إلى باريس[١٠]

(١٠) هكذا في الأصل، في صفحة مستقلة، بعدها بياض. السطور الثلاثة إشارات لموضوعات كانت الكاتبة تفكر في إمكانية إدراجها في الكتاب. عقدت سبع جلسات للعلاج الإشعاعي في مركز الجاما بمعهد ناصر بين مايو وأكتوبر ٢٠١٤، وتمت زيارة باريس للبحث عن أدوية تجريبية لمدة ثلاثة أسابيع في يونيو من نفس العام بين جلسة العلاج الأولى والثانية.



## الفصل الثالث والعشرون[١١]

(١١) بعد هذا العنوان، بياض في الأصل.

## الفصل الرابع والعشرون

يوم الاثنين السابع من إبريل.

كأنه إعلان انتهاء الثورة وعودة الفلول إلى الحكم: مرافعة محاكمة حبيب العادلي. والحكم على أحمد ماهر وأحمد دومة ومحمد عادل بالسجن.

اقتباس من مقال تميم(١٢)

---

(١٢) هذه السطور كما وردت في صفحة مستقلة بعدها بياض في الأصل.

الفصل الخامس والعشرون

## فصل الختام

## سبوع بهية

يحق لكما يا صاحبيّ القارئ والقارئة وقد احتملتما معي هذا الحديث الثقيل الذي يبدأ بوصف لوحة فيها شخص يصرخ فزعًا، ثم يدرج قوائم بأعداد القتلى والمصابين والمقبوض عليهم، ثم يُفَصِّل الكلام عن هلاوس سيدة في غرفة للعناية المركزة لأنها تمر بأزمة صحية معقدة غير مأمونة العواقب.. أقول يحق لكما الآن وقد قطعتما معي هذا الطريق، واحتملتما ما احتملتما أن نذهب إلى مساحة مشمسة أو مبهجة أو ترن فيها أجراس الفرح كأننا في ليلة العيد يصدح فيها صوت أم كلثوم وهي تغني:

| | |
|---|---|
| يا ليلة العيد آنستينا | وجددتِ الأمل فينا |
| هلالك هلّ لعنينا | فرحنا له وغنينا |
| وقلنا السعد حايجينا | على قدومك يا ليلة العيد |

وسوف تلحظين يا سيدتي القارئة أنني حذفت بعض الأبيات من قصيدة أحمد رامي التي لحنها له رياض السنباطي، قبل ولادتي بسبع سنوات. منها البيت الذي يقول فيه «يعيش هارون يعيش جعفر ونحيي لهم ليالي العيد»، والبيت الذي يقول «يعيش فاروق ويتهنى ونحيي له ليالي العيد» لأننا أبناء زمن آخر لا نهتف فيه للملوك ولا نغني لهم.

وأكاد أراك يا سيدي تتطلع باستغراب كأنك تتشكك في سلامة عقلي والحديث ينتقل فجأة بلا منطق مفهوم إلى ليلة العيد! أي عيد؟ وهل كنتم حقًّا تحتفلون بليلة عيد؟ لا يا سيدتي القارئة كنا نحتفل بسبوع بهية ابنة مالك عدلي وأسماء علي.. وكان مالك وأسماء أجّلا الاحتفال بسبوع ابنتهما البكر ثلاثة أشهر حتى يخرج علاء من السجن. فحملا الصغيرة لنحتفل بها ونضعها في الغربال، و«ندق لها الهون» كما تقتضي الطقوس المتوارثة. كما حملت نوّارة نجم وليدتها فاطمة الزهراء، وحمل مالك مصطفى وفاطمة عابد وليدتهما إيمان. ثلاث بنات وُلدن واحدة وراء الأخرى في غضون أسابيع، وأرضعتهن نوارة فصرن الآن وإلى ما شاء الله، أخوات في الرضاع.

أعرف أن نوارة ومالك مصطفى ومالك عدلي واجهوا الموت معًا في التحرير وفي محمد محمود وفي المشرحة. منح الله كلًّا منهم بنتًا فقررت نوارة بعبقرية تخصها أن ترضعهن جميعا. وكان علاء خرج من السجن وجاء بخالد ومنال ووالده أحمد سيف ووالدته، ليلى سويف. وجاءت سامية جاهين وعمرو عبد العليم بفاطمة الكبيرة



لأنها غدت في السادسة من عمرها وجاء خالد عبد الحميد وزوجته تحرير بابنتهما فرح.

ألقي نظرة سريعة فأرى تميم وعلاء ومالك عدلي ومالك مصطفى يقفون معا يتحدثون في أمر ما. أذهب لنوارة وأحمل فاطمة الزهراء، صغيرة منمنمة، ترضع إبهامها وتستكين على صدري وتستغرق في النوم. يأخذها مني مريد فأحمل بهية ثم أركض وراء خالد. تستوقفني رموش الصغار.. أكاد أتمتم: بخّروهم رموشهم سوداء طويلة لافتة وعيونهم كحيلة واسعة، وشكلهم جميل يرد الروح. طبعا عيد.

أقترح يا سيدي القارئ أن تتابع معي المشهد وأنت تسمع أم كلثوم وهي تغني يا ليلة العيد. نساء في مقتبل العمر، لهن مواليد صغار، وأمهات أخريات. وكومة من الأطفال تتراص في جانب من الحديقة تتابع مهرجًا ما يلاعبهم. يكركر الصغار يضحكون. والأمهات يحملنهم ويتراقصن معهم على إيقاع الموسيقى ويرددن مع الأغنية: حلقاتك برجالاتك، حلقة دهب في وداناتك. يا رب يا ربنا تكبر وتبقى قدنا، وتيجي تعيش وسطنا.

* * *

التركيز على صورة علاء وهو يحمل خالد فوق كتفيه.(١٣)

التعليق على صورتي أنا وليلى سويف.

---

(١٣) هذه السطور وحتى نهاية النص كتبت بعد المشهد الأخير من الفصل، وأوردناها هنا كما في الأصل.

لا تأتي الصورة وحدها بل تجر في أذيالها صورًا أخرى.. صورتي في مساء ١٢ أكتوبر ١٩٧٢ تتصل بالذاكرة. صورتي بالروب الأسود، وصورتي بالثوب الأنيق.

الجالسون على المنصة رحلوا.. لكنهم لم يرحلوا من الصورة.

فصل عن الصور والذاكرة.

فصل الرحلة إلى باريس.

مركز الجاما.

ثم توقفت عن الكتابة ثلاثة أشهر أو أربعة.

ولأنه كما يقول تميم: «حَرَم الكتابة ليها هيبة دَخْلِتُه»، تدور الكتابة في بالي طوال الوقت.. ولكنني لا أجرؤ على الاقتراب من الكمبيوتر أو الورقة والقلم لأكتب[١٤].

---

(١٤) توقفت الكاتبة عن كتابة هذا النص يوم السابع من سبتمبر ٢٠١٤، وحسب كمبيوترها فإن آخر تعديل حفظ في ملف النص تم الساعة السادسة وسبع وثلاثين دقيقة من مساء ذلك اليوم.

## الفهرس

هذا هو الجزء الثاني من كتاب «أثقل من رضوى» (٢٠١٣) والذي روت فيه الكاتبة تجربتها مع المرحلة الأولى من المرض والعلاج وما كان يجري في مصر من أحداث بين عامي ٢٠١٠ و٢٠١٣. في هذا النص تكمل رضوى عاشور رواية تجربتها مع عودة المرض ومع ما جرى في مصر، وقد توقفتْ عن الكتابة في سبتمبر ٢٠١٤ ووافتها المنية في ١ ديسمبر من العام نفسه.

وقد قمنا بنشر النص كوثيقة، كما هو، بدون تدخل من جانبنا، إلا من بعض الحواشي التي تشرح إشارات في النص تحيل إلى كتاب «أثقل من رضوى»، كما قد يجد القارئ والقارئة، رؤوس أقلام أو عناوين فصول، بعدها صفحة بيضاء، كانت الكاتبة تتأمل تتبعها أو الكتابة عنها ولم تفعل. كانت الكاتبة اختارت عنوان هذا الكتاب، وعينت الفصل الختامي منه، وإن كان تأمّلها لإضافة فصولٍ داخليةٍ فيه ظاهرًا. وعلى غير العادة، لم تسمح الكاتبة لأسرتها وأصدقائها بالاطلاع على النص أثناء كتابته.

---



**رضوى عاشور** (١٩٤٦ - ٢٠١٤): روائية وناقدة وأستاذة جامعية مصرية. درست الأدب الإنجليزي في جامعة القاهرة. حصلت على الماجستير في الأدب المقارن عام ١٩٧٢، وعلى الدكتوراه في الأدب الأفريقي الأمريكي من جامعة ماساتشوستس عام ١٩٧٥. تُرجمت أعمالها إلى الإنجليزية والأسبانية والإيطالية والأندونيسية. نالت العديد من الجوائز منها: جائزة سلطان العويس للرواية والقصة (٢٠١٢)، وحصلت «ثلاثية غرناطة» على جائزة أحسن رواية من معرض القاهرة للكتاب (١٩٩٤)، والجائزة الأولى للمعرض الأول لكتاب المرأة العربية (١٩٩٥). ومن أعمالها الروائية: «سراج»، «ثلاثية غرناطة»، «أطياف»، «قطعة من أوروبا»، «فرج»، «الطنطورية»، و«أثقل من رضوى».




دار الشروق
www.shorouk.com